

مرحباً أيها الحزن

مرحباً أيها الحزن

فرنسواز ساجان

ترجمة: فؤاد مويساتي

تقديم ومراجعة: خالد عوض

الطبعة: ٢٠٢٣



العربية للاعلام والفنون والدراسات الانسانية والنشر

٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكو ر - الهرم – الجيزة - مصر

هاتف: ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥

http://www.azhabooks.com

E-mail: info@azhabooks.com

بطاقة فهرسة أثناء النشر

فرنسواز ساجان. – ترجمة: فؤاد مويساتي – تقديم ومراجعة: خالد عوض– مرحباً أيها الحزن

– الجيزة – أزهى، ٢٠٢٢

١١٩ ص، ١٨*٢١ سم.

الترقيم الدولي: ٥ – ٠ – ٨٦٤٦٤ – ٩٧٧ - ٩٧٨

أ – العنوان رقم الإيداع: ٢٧٣٤٨ / ٢٠٢٢

فرنسواز ساجان

مرحباً أيها الحزن

ترجمة

فؤاد مويساتي

تقديم ومراجعة

خالد عوض

تقديم

ولدت فرانسواز ساجان في الحادي والعشرين من يونيو عام ١٩٣٥، بمعقل عائلتها ببلدة كاجرك، بالجنوب الغربي لفرنسا، اسمها الحقيقي فرانسواز كواريه، فهي سليلة أسرة كواريه ذات الاسم الشهير في عالم الصناعة والمال، المعروفة كذلك بنزعتها الكاثوليكية المتشددة، لذلك ألحقت ابنتها الصغيرة بمدرسة تتبع دير كاثوليكي، حيث حصلت على الشهادة الثانوية في عام ١٩٥٣، بدت المدرسة لها كسجن تقبض جدرانه على روحها الميالة للتمرد، فلم تكن أجواء المدرسة والدير تناسب الروح المتمردة التي تسكن جسد فرانسواز، والتي وجدت فرصتها للانطلاق حينما انتقلت إلى باريس لتدرس في السوربون، لكنها قررت أن تتعرّف على باريس الأخرى التي أحبيتها بجنون، ففشلت في امتحان القبول في جامعة السوربون، فجعلت من مقاهي وملاهي فتلتقي بالمثقفين الحي اللاتيني جامعتها، وهناك التقت بالفنانين والشعراء والأدباء، وهناك أعلنت تمردها على عائلتها وعلى نفسها فتخلت عن اسم العائلة واتخذت لنفسها اسم فرانسواز ساجان، وهو اسم إحدى شخصيات الأديب الفرنسي مارسيل بروست في رائعته "البحث عن الزمن الضائع".

مرحبًا أيها الحزن

عاشت فرانسواز الحياة التي تريدها لكنها لم تكن سعيدة، فقد اعتراها حزن وجودي ملأ جوانحها، ودفعها للانفراد بنفسها في حجرتها لمدة سبعة

أسابيع متواصلة لتبث أحزانها للأوراق، وهكذا ولدت روايتها الأولى "صباح الخير أيها الحزن"، التي أصدرتها في مطلع خريف ١٩٥٤م قبل أن تتم عامها الثامن عشر.

ما إن انتهت فرانسواز من كتابة روايتها حتى عرضتها على صديقتها فلورانس ابنة الكاتب الشهير أندريه مالرو، فاصطحبتها إلى كوليت المحررة بالمجلة الادبية التي يرأسها تحريرها جان بول سارتر، فقرأت الرواية وأعجبت بها وقدمتها إلى أحد الناشرين الذي اعتبرها قاصرًا فطلب توقيع الأب على العقد.

كان هذا الشرط تعجيزيًّا، فأرسلت إلى العديد من دور النشر مظروفها الذي يحتوي على الصفحات المائة والستين التي تشكل روايتها، والتي استعارت عنوانها من بيت للشاعر الفرنسي بول ايلوار، وكتبت موضحة معناه في الصفحة الأولى من المخطوط، وقد أصبحت من المأثورات الشهيرة في الأدب الفرنسي، وجاء فيها "أتردد في وضع الاسم الجميل والخطير والمبهم كعنوان للمشاعر المبهمة التي تتملّكني بما فيها من قلق ونعومة في آن".

رفض أكثر من ناشر المغامرة بنشرها، بينما وافق واحد بعد تردد كبير، قال الناشر عن الرواية بعد أن قرأها: "إنها قنبلة"، وسألها إن كانت تمثل سيرة ذاتية للمؤلفة، لكنها نفت بشدة وهي ترتعد من الخوف، فسألها: هل قرأ أهلك الرواية؟

كان الجواب أيضا بالنفي، قالت: لا فأبي مشغول بأعماله ولا أعتقد أن الرواية ستعجب أمي، استطاعت ساجان أن تقنعه بالتنازل عن شرط

توقيع الأب على العقد، ومنحها شيكاً بمبلغ خمسين ألف فرنك فرنسي، وفوراً أقامت حفلة لأصدقائها وصديقاتها في مقهى فلورا وبعد مرور سنة واحدة على ذلك استلمت شيكاً قيمته خمسة ملايين فرنك فرنسي.

رواية غير تقليدية

لم تكن "مرحباً أيها الحزن" رواية تقليدية على الإطلاق، وذلك لظروف كتابتها وأيضا لطبيعة موضوعها، فهي من جهة تدور في عالم المراهقين راصدة تقلبه واضطرابه، بسلاسة ودون النظرة الفوقية والتنظيرات المعقدة التي يمكن أن تصدر عن الكتاب الأكبر سناً ، ومن جهة أخرى تتجاوز الرواية أحداثها لتكشف مع آخر عبارة فيها الستار عن تقييم خفي بين السطور للحياة العابثة في المجتمع الفرنسي البرجوازي.

تتحدث الرواية عن سيسيل الفتاة ذات السبعة عشر عاما، التي تقضي الصيف في فيلا على الريفييرا الفرنسية مع أبيها وصديقته إلسا، حيث الأب زير نساء معروف بعلاقاته النسائية المتعددة، وعلاقته الأخيرة فكانت مع ليزا صديقة ابنته، ويحدث أن تصل ذات يوم آن التي تبدو مختلفة بثقافتها وأناقتها عن النساء اللواتي اعتاد الأب مرافقتهن، خصوصًا إلسا التي تستشعر القلق المبهم من قدومها، وبالفعل يتحقق حدس إلسا إذ يعلن الأب ريمون وآن ذات صباح أنهما سيتزوجان.

وبالرغم من أن سيسيل تبدي إعجابها بآن، لكنها تستاء من زيادة اهتمام ريمون بخطيبته، وهو الأمر الذي شغله عن ابنته، مما أثار حنقها وغيرتها، ذلك من جانب، ومن جانب آخر استغلت إلسا تأثيرها على

سيسيل فقامت بتحريضها ضد آن، لينتهي الأمر بآن الى السقوط من أعلى فيما يشبه الانتحار، بينما يعود الأب وابنته إلى الفراغ الصيفي في الفيلا من جديد كما كانا قبل وصول آن.

عقدة الكترا

تروي الابنة سيسيل أحداث الرواية بضمير المُتكلم، وتتداعى ذكرياتها لتضع القارئ مكانها، وتبدأ الرواية بصيغة مونولوجية توحي بحيرة الساردة في تسمية ما تشعرُ به، فهي لا تريدُ توصيف الإحساس الذي بنتابها بالحزنِ، ثم تنتقلُ بعد ذلك إلى المشهد الذي يجمعها بوالدها الأرمل الذي فقد زوجته منذ خمسة عشر عاماً وعشيقته إلسا، وما تسمعه على لسانها حول ريمون ينمُ عن إعجاب به وتعاطف وغيرة عليه.

بعدما تغادرُ سيسيل مدرسة الراهبات عائدةً إلى والدها تلاحظُ سرعة استبداله عشيقاته، أمر تحاولُ الابنة استيعابه ومعايشته وإدراك حاجة الرجلِ الشديدة إلى النساء، لذلك لا تُمانعُ مشاركة إلسا في الرحلة، فسيسيل نفسها تعيش حياتها طليقة دون أي قيود، وتصور ذكرياتها شخصيتها الشغوفة بالحياة وملذاتها الحسية، فهي تقضي أغلب أوقاتها بصحبة الأصدقاء في باريس ولا تهتم بالدراسة وقراءة الكُتبِ إلا قليلاً، تماما مثل فرانسواز نفسها.

تعتمد الحكاية على طرفين، وهما إلسا هي عشيقة ريمون التي لم يعدْ لها دور في حياة ريمون بعد ظهور آن، وسيريل حبيب الابنة التي لا تضيق بآن وتدخلاتها في تفاصيل حياتها، خصوصا بعدما اعترضت آن على العلاقة الحميمة بين سيسيل وسيريل، وتكبرُ الهوةُ أكثر مع إعلان ريمون الزواج بآن،

ومن هنا تفكر سيسيل في إثارة غيظ ريمون من خلال تمثيلية يؤديها كل من سيريل وإلسا.

تعرض عليهما أن يمثلا دور العاشقين فيتعمدان الظهور في الأماكن التي يرتادُها ريمون، وهو لا يستطيع تجاهل هذه الوضعية، فتبدأُ محاولاته لاستعادة إلسا.

هنا تتدخلُ الساردة لتقديم تفسيرها حولَ رغبة ريمون في كسب ود ليزا مجدداً، فالسر يكمنُ في أنها تعادل الشباب والحيوية، ما يعنى أن الوصول إليها يُشعر ريمون بالثقة أكثر ويقتنعُ بأنه لا يزال شاباً، ذلك إضافةً إلى تخلصه من عُقدة الفقدان بعودة ليزا، أكثر من ذلك أبان الموقف عن وجود ما يسميه كارل يونغ بعقدة الكترا في شخصية سيسيل التي لا تجدُ بديلاً لوالدها في رجل آخر رغم تواصلها الحسي مع عشيقها.

وهكذا فوجودية سيسيل هي الهاجس الذي يستفز الأحداث من حولها، وكان كل شيء يبدو عاديًّا إلى أن يقرر ريمون أن يستضيف آن المرأة الأربعينية، الواثقة والمثقفة أيضاً، والتي تحمل دهاءً فريداً يمكنها من بسط سيطرتها على المنزل كله وتخريب علاقة سيسيل بحبيبها العشريني سيريل.

هنا تكشف سيسيل عن شخصية جامحة، متطرفة، أنانية إلى حد ما، فهي من جهة ستسعى إلى التقرب أكثر من أبيها الأربعيني، وإرجاعه إلى السعادة التي كانت قائمة قبل مجيء آن، ومن جهة أخرى ستسعى وراء الحب إلا أنها ستخرج منه صفر اليدين، لتكتفي بالانغماس في ملذاته الجسدية مع سيريل.

هكذا تحاول سيسيل أن تتعرف إلى نفسها جيداً، كما لو أنها تريد الحصول على تجارب الحياة كاملة عبر هذه التجربة الواحدة والمعقدة، فنجدها تنحاز إلى اللحظة التي تختبرها، وتعرف كيف تفسّرها وكيف تشرّح مشاعرها وقلقها وأفكارها مستفيدة من الفلاسفة والمفكرين الذين تقرأهم كباسكال، كانتْ، وسارتر.

كل ذلك دون أن يعني هذا انحيازها إلى أي من شخصيات العالم المتدخلة بها وبأبيها، فآن، وليزا، وسيريل لن يكون لهم أثر في النهاية، وكما ظهروا بقوة ثم تلاشوا، ستجد سيسيل نفسها منغمسة مجدداً في حلقة من الشخصيات والأسماء الجديدة، وعلاقات العشق، في مسار حياة مشابه كثيراً لما يعيشه والدها.

وفي النهاية نتوقف عند المقارنة التي تعقدها فرانسوا ساجان، في الرواية بين نفسها وبين إحدى الشخصيات النسائية فقالت تصفها "كانت تنتمي لنوع من النساء اللواتي يستطعن الكلام، وهن منتصبات، من دون ان يتحركن، أما أنا فأحتاج إلى مقعد وإلى شيء أمسكه بيدي ولفافة تبغ، وأيضا وإلى تحريك ساقي، وأنا انظر لها"، هذه الفقرة بجمال تعبيرها وعمق الفكرة التي تطرحها؛ تلخص التفاوت بين قوة الآخر وتهافت الذات إزاءه، وهو تهافت يحسب للضعيف على القوي، فكثيرا ما نجد أنفسنا في موقف مصادرة لشخصياتنا، فنضعف أمام نظرائنا في الحياة؛ لأنهم متماسكون بينما نحن نستعذب ضعفنا تلذذا بجلد الذات، في نزوع مازوخي محبط، إن فرانسواز ساجان في هذه الفقرة من روايتها العظيمة قدمت دراسة في علمي النفس والاجتماع مؤطرة لوجود فتاة سعيدة بتهافتها مقابل قوة منافستها.

هكذا يجد القارئ نفسه، بفضل روعة التصوير، محبًّا لحالة فنية صورتها الرواية، مع أنه يكره أن يكونها في الواقع، وتلك من مزايا التداعي الحر في الطب النفسي، الذي يتكامل بتيار الوعي في الأدب، مثل هذه الرسائل التي تحملها بعض فقرات الرواية تجيء عفوية ولا تتعمدها الكاتبة، وقد قالت عن ذلك " حينما أكتب لا أبحث عن توجيه رسائل للقارئ، ولا أفعل شيئاً سوى الكتابة، مع ذلك لا يقتضي صفاء البصيرة الإفراط في التواضع، أعتقد أنني أمتلك موهبة وهي موهبة قد تكون أكبر مما يقوله الناس عمومًا، لكن ربما أقل مما يؤكّده البعض".

وبهذه الرواية شكلت فرانسواز ساجان ظاهرة فريدة في الأدب الفرنسي والعالمي، فالرواية بما أثارته من موجات انتقاد وتجريح من ناحية، وتشجيع ومديح من ناحية أخرى جعلتها واحدة من فقد كانت صريحة وعفوية ومبدعة وساحرة في روايتها هذه التي صَوّرت فيها حياة أسرة برجوازية حيث يعيش الأب وابنته في بيت واحد، ولكن لكل منهما حياته العاطفية والاجتماعية الخاصة.

حظت فرانسواز بإعجاب جيل الشباب بجرأتها وعفويتها، واستطاعت أن تُخرجهم من الأحزان التي خلّفتها الحرب العالمية الثانية، وصورت لهم حياة جديدة يحلمون بها، وأصبحت بعدها من أشهر الروائيين في فرنسا وأيضا في العالم، خصوصا بعد ترجمة روايتها للكثير من اللغات ومنها العربية.

وتوالت بعد ذلك أعمال فرانسواز ساجان لتصل إلى خمسين عملا، واستمر الانقسام بشأن تقييم أعمالها وشخصها، فهناك من أشاد بموهبتها

في مواجهة من ادعى ضحالتها ومحدودية قدراتها الإبداعية، وهناك من اتخذ منها أيقونة للحرية في مقابل من رآها رمزا للانفلات الأخلاقي، ذلك أن الصور الشخصية التى تم تداولها لها، ونشرتها الصحف والمجلات أصبحت تعبر عن طريقتها فى الحياة، التى ربما رفضتها القوى الاجتماعية فى بلدها، كانت الصور لها، إما وهى تمسك فى يد كأساً، وفى الأخرى سيجارة، أو وهى تقف بجوار سيارة رياضية غالية الثمن بشكل مبالغ فيه، فيبدو أن الشهرة والأموال التى تدفقت عليها بغير حساب قبل أن تبلغ العشرين من عمرها، أفقدتها توازنها، وتجعل الأمور تختلط عليها.

خالد عوض

وداعا أيها الحزن

مرحباً أيها الحزن

إنك منقوش في خطوط السقف

إنك مرتسم في عيني من أحب

لست التعاسة كاملة

فالشفاه الأكثر مسكنة تعرب عنك

بابتسامة

مرحباً أيها الحزن

يا حب الأجساد المحببة

وقوة الحب

الذي تبرز مودته

كوحش بدون جسد

أيها الوجه الخائب الأمل

يا حزن، أيها الوجه الجميل

ب. ايلوار

(الحياة الفورية)

القسم الأول

الفصل الأول

أجدني مترددة في وصف هذا الشعور المجهول الذي يلاحقني ملله وحلاوته، بالحزن الجميل، أنه شعور كامل أناني إلى حد أني أكاد أخجل منه، بينما بدا الحزن دائماً لي شريفاً.

لم أكن أعرفه، ولكنني أعرف الملل والأسف ونادراً الندم، واليوم يلتف على شيء كالحرير مثير وناعم يفصلني عن الآخرين.

في ذلك الصيف كنت في السابعة عشرة وسعيدة كل السعادة، أما "الآخرون" فقد كانا أبي و"إلسا" عشيقته، وعلي هنا أن أشرح فوراً هذا الوضع الذي قد يبدو غريباً.

كان أبي في الأربعين من عمره وأرملاً منذ خمس عشرة سنة، وكان رجلاً شاباً كله حيوية، وعند خروجي من المدرسة الداخلية قبل ذلك بسنتين لم أستطع أن آخذ عليه العيش مع امرأة، إلا أني لم أقبل بهذه السهولة، تبديله إياها كل ستة شهور!، ولكن سرعان ما دفعني سحره وهذه الحياة السهلة الجديدة واستعدادي الطبيعي إلى القبول بذلك.

كان رجلاً ضعيفاً بارعاً في الأعمال دائم الفضول ولكن سريع الملل، وكان محبوباً من النساء، ولم أجد صعوبة في أن أحبه بحنان فقد كان طيباً وكريماً ومرحاً وكله عطف عليّ، ولا يمكنني أن أتصور صديقاً أفضل أو أكثر إلهاء منه، وقد بلغ به اللطف، بداية ذلك الصيف، حد سؤالي إذا كانت صحبة إلسا عشيقته آنذاك، لا تزعجني في أثناء العطلة، ولم أستطع إلا أن

أشجعه فقد كنت أعرف حاجته للنساء وأعرف أن إلسا لن تزعجنا.

كانت إلسا فتاة طويلة القامة، حمراء الشعر، تقوم ببعض الأدوار البسيطة في الأفلام وحانات الشانزليزيه، وكانت لطيفة بسيطة وبدون مطامح، وبعد فقد كنت وأبي سعيدين بالرحيل حتى أننا لم نكن لنفكر بمعارضة أي شيء، وكان أبي قد استأجر على ساحل البحر الأبيض المتوسط، دارة منعزلة كبيرة كنا نحلم بها منذ بدأ الحر في حزيران، كانت مبنية على تلة تطل على البحر وتخفيها عن الطريق غابة صنوبر، وكان أمامها طريق ضيق وعر ينزل إلى خليج صغير تحيط به الصخور الحمراء التي يتمايل البحر حولها.

كانت الأيام الأولى بديعة، فقد كنا نقضي ساعات على الشاطئ نعاني وطأة الحر ونكتسب لوناً ذهبياً، ما عدا إلسا التي كان جسمها يحمر ويسبب لها آلاماً شديدة، أما أبي فقد كان يقوم بحركات رياضية معقدة ليزيل بداية كرش لا يتناسب ومطامحه الغرامية.

كنت أنزل إلى البحر عند الفجر، فأغطس في الماء الشفاف المنعش وأقوم بحركات كثيرة لا غسل عني ظلال باريس وغبارها، ثم استلقي على الرمل وآخذ حفنة منه في قبضة يدي وأتركه ينساب من خلال أصابعي، وكنت أقول لنفسي أنه يهرب كالوقت وأن هذه فكرة سهلة وأن من المسر أن تخطر للمرء أفكار سهلة.

وفي اليوم السادس رأيت سيريل أول مرة، كان على زورقه الشراعي الصغير الذي ما لبث أن انقلب في خليج، فساعدته على استعادة حاجاته وعلمت بين ضحكنا أنه طالب حقوق يدعى "سيريل" وأنه يقضي العطلة

مع والدته في دارة مجاورة، كان وجهه لاتينياً أسمر، وقد أعجبني فيه ما يبدو عليه من أمارات الاتزان والحماية، مع أني كنت أهرب من طلاب الجامعة الخشنين الذين لا يهتمون إلا بأنسهم وشبابهم والذين يجدون به موضوعاً للتفجع أو عذراً للملل.

لم أكن أحب الشباب كنت أفضل عليه أصدقاء أبي، رجالاً في حدود الأربعين، الذين كانوا يحدثونني بلباقة وحنان ويحيطونني بعطف الوالد والعشيق، ولكن سيريل أعجبني كان طويلاً، وكان جميلاً أحياناً من نوع الجمال الذي يوحي بالثقة.

عرض عليّ سيريل، وهو يغادرني أن يعلمني قيادة الزوارق الشراعية، وعدت إلى المنزل لتناول العشاء وقد شغلتني هذه الفكرة لم أشترك في الحديث، وكدت لا ألاحظ اضطراب أبي، وبعد العشاء تمددنا مثل كل مساء على مقاعد وضعناها على السطح.

كانت النجوم تغطي السماء فرحت أنظر إليها وأنا أتمنى أن تسبق موعدها وتأخذ في اجتياز السماء وهي تسقط، ولكننا كنا في مطلع تموز ولم تكن تتحرك، وفي جوانب السطح كانت الصراصير تغني ولا شك أنها كانت ألوفًا من الصراصير التي أسكرها الحر والقمر فأخذت تقضي ليالي كاملة تطلق هذه الصيحات الغريبة، ورغم أني تعلمت أنها تمر بأحد أعضائها على الآخر، فأنني كنت أفضل أن أتخيلها تغني من حناجرها ذلك الغناء الغريزي كغناء القطط في موسمها.

كنت مسترخية وكانت ذرات الرمل التي تسللت بين قميصي وجسمي

تحول دون استسلامي للنوم، وتنحنح أبي واستقام في جلسته وقال:

– هناك شخص سينضم إلينا.

أغمضت عيني بيأس، كنا مرتاحين كل الراحة، وما كان هذا ليدوم وهتفت إلسا بفضول:

– قل لنا بسرعة، من؟

والفت أبي إليّ وقال:

– آن لارسن.

ونظرت إليه بدهشة وقد شعرت بعجزي عن القيام بأية حركة بينما أضاف:

– لقد طلبت منها القدوم إذا كانت تعبة من مجموعاتها.

وسوف .... تأتي.

ما كان هذا ليخطر ببالي، كانت آن لارسن صديقة قديمة لأمي المسكينة، وكانت علاقتها بأبي محدودة، ومع ذلك عندما غادرت المدرسة الداخلية قبل سنتين، أرسلني والدي إليها إذ أن وجودي كان يحرجه، وما مضى أسبوع حتى كانت قد جعلتني أحسن اختيار ثيابي وعلمتني كيف أعيش، فأخذت أكن لها إعجاباً قوياً ما لبثت أن حولته ببراعة نحو شاب تعرفه، وهكذا فأني مدينة لها بأناقتي وحبي الأولين، ورغم أنها بلغت الثانية والأربعين فأنها كانت جذابة ذات وجه جميل متكبر يلوح عليه الإعياء وعدم الاكتراث، وعدم الاكتراث هو كل شيء فيها يوحي بإرادة قوية وراحة قلب

تحرجان من يقربها، ومع أنها مطلقة وحرة فإنها كانت بدون عشيق، وبعد فلم تكن لنا نفس اتصالاتها فهي تصاحب أناساً ناعمين وأذكياء، ونحن أناساً صاخبين لا يطلب منهم أبي سوى أن يكونوا ذوي جمال أو ظرف، وأظن أنها كانت تزدرينا قليلاً، أنا وأبي لتعلقنا باللهو والعبث كما كانت تزدري كل أمر مبالغ فيه، ولم نكن نجتمع إلا عندما نتناول العشاء معاً للتباحث في الأعمال، فقد كانت تعمل بالخياطة وأبي بالدعاية، بالإضافة إلى ذكرى أمي وجهودي إذ أني كنت معجبة بها كل الإعجاب.

وبدا لي قدومها المفاجئ محرجاً نظراً لوجود إلسا ولآراء آن في التربية.

وصعدت إلسا لتنام بعد أن ألقت مجموعة من الأسئلة عن مركز آن في المجتمع، وبقيت وحدي مع أبي فذهبت وجلست على درج السلم عند قدميه وانحنى فوقي ووضع يديه على كتفي وقال:

– لماذا أنت ضعيفة البنية إلى هذا الحد؟ إنك تبدين كالقطة المتوحشة، إنني أتمنى أن تكون لي ابنة حسناء شقراء الشعر، قوية و...

وقاطعته:

– دعنا من هذا، لماذا دعوت آن ولماذا قبلت هي الدعوة؟

– ربما لرؤية أبيك .. ما أدراني؟

– لست من الرجال الذين يثيرون اهتمام آن، إنها ذكية جداً وتحترم نفسها كثيراً، وإلسا؟ هل كرت بإلسا؟ هل تتصور أنواع الأحاديث التي ستجري بين آن وإلسا؟

وصمت لحظة ثم أجاب كمن يقر بخطأ ارتكبه:

– إنني لم أفكر بذلك صحيح، إن هذا مريع، ما رأيك يا سيسيل لو عدنا إلى باريس؟

وأخذ يضحك بهدوء وهو يداعب عنقي، واستدرت وأخذت أنظر إليه، كانت عيناه السوداوان تلمعان وقد تجمعت بعض الأخاديد حولهما، وأخذت أضحك معه كما اعتدت أن أفعل كلما خلق لنفسه متاعب، وقال وهو ما زال يبتسم:

– يا شريكتي المحبوبة، ماذا أستطيع أن أفعل بدونك؟

وكان في صوته حنان جعلني أدرك أنه كان ممكناً أن يكون تعيساً.

وفي ساعة متأخرة من الليل تحدثنا عن الحب ومشاكله، كان أبي يعتبر هذه المشاكل خيالية، وكان يرفض رفضاً باتاً مبادئ الإخلاص والرصانة والارتباط، وقد أوضح لي أنها كلها عقيمة، ولو قال غيره هذا لشعرت بصدمة، ولكني كنت أعرف أن هذا لا يجرده شخصيًّا من الحنان والإخلاص اللذين كانا يأتيانه بسهولة، كان هذا المبدأ يأسرني، غراميات سريعة عنيفة عابرة، ولم أكن في سن أعجب فيها بالإخلاص، فقد كان ما أعرفه عن الحب يمكن تلخيصه في كلمات ثلاث:

"مواعيد وقبلات وارتخاء".

الفصل الثاني

توقعنا أن تصل آن بعد مرور أسبوع، فقررت أن أستفيد بالأيام الأخيرة من العطلة الحقيقية، لقد استأجرنا الدارة لمدة شهرين ولكنني كنت أعرف أن الانطلاق التام لن يعود ممكناً فور وصول آن، كانت آن تعطي الأشياء شكلاً والكلمات معنى اعتدنا، أنا وأبي أن نتعامى عنهما، كانت تضع حدوداً للذوق الحسن والنعومة وما كان أحد ليستطيع أن يشعر بها في تباعدها المفاجئ وصمتها الجريح، كان هذا مثيرًا ومتعبًا، وكان مهينًا في آخر الأمر إذ أني كنت أشعر بأنها مصيبة.

ويوم وصولها تقرر أن يذهب أبي وإلسا إلى محطة فريجوس لانتظارها، إذ أني رفضت أن أراقبهما ولما يئس أبي من إقناعي قطف كل ما في الحديقة من زهور ليقدمها لها عند نزولها من القطار، وقد نصحته بألا يعهد بالباقة إلى إلسا.

وفي الساعة الثالثة بعد ذهابهما نزلت إلى الشاطئ، وكان الحر شديداً فتمددت على الرمل واستغرقت في النوم إلى أن أيقظني صوت سيريل، فتحت عيني ونظرت إلى السماء فإذا هي بيضاء.

ولم أرد على سيريل، فلم أكن أشعر برغبة في أن أحدثه أو أحدث أياً كان كنت مستمرة على الرمل بكل قوة هذا الصيف وقد ثقلت ذراعاي وجف فمي، وقال:

– هل أنت ميتة؟، إنك تبدين من بعيد كالحطام المهجور، وابتسمت فجلس

بجانبي وإذا بقلبي يزداد خفقاً ويأخذ بالقرع بشدة إذ أن يده وهو يجلس لمست كتفي، وكنا في الأسبوع السابق قد قفزنا عشر مرات متعانقين إلى الماء دون أن أشعر بأي اضطراب ولكن كان كافياً اليوم وجود هذا الحر وهذا النوم المثقل وهذه الحركة العفوية لكي يتمزق في شيء ما.

أدرت وجهي إليه وإذا به ينظر إليّ، لقد بدأت أعرفه، إنه متزن يتعلق بالفضيلة بصورة غير معتادة في من كان بسنه، ولهذا كان وضع عائلتنا يثيره، كان أطيب أو أكثر حياء من أن يقول لي ذلك ولكني كنت أشعر به من النظرات الحانقة التي يلاحق بها أبي كان يرد لو ضايقني وضعنا، ولكنه لم يكن يضايقني، وكل ما كان يهمني بتلك اللحظة هو نظراته وقرع قلبي.

وانحنى فوقي وتراءت لي آخر أيام هذا الأسبوع وثقتي واطمئناني بقربه وأسفت لاقتراب هذا الم الطويل وقلت:

– سيريل كنا سعيدين جداً ..

وقبلني بلطف، كنت انظر إلى السماء، ثم لم أعد أرى سوى أنوار حمراء تلتمع تحت جفني المغمضين، ومر الحر والدوار وطعم القبلات الأولى والتنهيدات بدقائق طويلة، وارتفاع زعيق نفير سيارة فانفصلنا كأننا لصان، وغادرت سيريل دون أن أقول له كلمة وصعدت إلى المنزل، كانت هذه العودة السريعة تدهشني، من المؤكد أن قطار آن لم يصل بعد، وعندما وصلت إلى السطح رأيتها تنزل من سيارتها الخاصة، وقالت:

– هذا منزل الحسناء الراقدة!، لقد اسمر لونك كثيراً يا سيسيل، إن رؤيتك تسرني كثيراً.

وأجبتها:

– وأنا أيضاً، ولكني هل أنت قادمة من باريس؟

– لقد فضلت القدوم بالسيارة، إنني منهوكة القوى.

وقدتها إلى غرفتها وفتحت النافذة أملاً في أن أرى زورق سيريل ولكنه كان قد اختفى، وكانت آن قد جلست على السرير، ولاحظت ظلالاً حول عينيها، وتنهدت قائلة:

– إن هذه الدارة بديعة، أين رب المنزل؟

– لقد ذهب إلى المحطة ليأتي بك تصحبه إلسا.

وكنت قد وضعت حقيبتها على مقعد وعندما التفت إليها تلقيت صدمة، كان وجهها قد تبدل فجأة، وقالت وشفتاها ترتجفان:

– إلسا ماكنبورغ؟ هل أحضر إلسا ماكنبورغ إلى هنا؟ ولم أجد ما أجيبها به، وأخذت انظر إليها مأخوذة، هذا الوجه الذي عرفته هادئاً وسيد نفسه، أراه الآن مثيراً لدهشتي.

كانت تنظر إليّ عبر الصور التي أوحت إليها بها كلماتي، ورأتني أخيراً فأدارت رأسها، وقالت:

– كان عليّ أن أبلغكم، ولكني كنت أستعجل الرحيل، وكنت تعبة...

وأكملت أنا جملتها آلياً فقلت:

– والآن ...

وسألتني:

– والآن ماذا؟

وكانت نظرتها متسائلة مزدرية.

فركت كفيّ وقلت بغباوة:

– الآن لقد وصلت، إني سعيدة لوجودك هنا، سأنتظرك تحت، وإذا أردت أن تتناولي كأساً فالمشرب ممتاز.

وخرجت وأنا أتعثر بكلامي ونزلت الدرج مشوشة الفكر، ترى ما سبب هذا الوجه المتغير وهذا الصوت المضطرب وهذا الضعف؟ وجلست على مقعد طويل وأغمضت عيني، وأخذت أحاول أن أتذكر جميع تعابير وجه آن القاسية والمطمئنة، السخرية والارتياح والسيطرة، كان اكتشاف هذا الوجه الحساس يؤثر بي ويثيرني، هل كانت تحب أبي؟ أكان ممكناً أن تحبه؟ لم يكن لديه ما يناسب ذوقها، كان ضعيفاً وخفيفاً ومائعاً أحياناً، أم أن هذا كان من تأثير السفر المتعب؟ وهكذا قضيت ساعة وأنا أحلل الافتراضات.

وفي الساعة الخامسة وصل أبي مع إلسا، ونظرت إليه وهو يترجل من السيارة، وأخذت أحاول أن أعرف إذا كان ممكناً أن تحبه آن، كان يسير نحوي بسرعة وقد مال برأسه إلى الوراء، كان يبتسم، وفكرت بتلك اللحظة أن من الممكن كثيراً أن تحبه آن، وأن يحبه أي كان.

وصاح أبي قائلاً:

– لم تكن آن هناك، أرجو ألا تكون وقعت من باب القطار.

وأجبته:

– إنها في غرفتها، لقد جاءت بالسيارة.

– صحيح؟ هذا بديع لم يبق عليك إلا أن تحملي الباقة إليها، وارتفع صوت آن قائلاً:

– هل ابتعت لي زهورًا؟ هذا لطيف منك.

كانت تنزل الدرج لتقابله منفرجة الأسارير باسمة ومرتدية فستانًا لا يبدو عليه أي أثر من آثار السفر، ولاحظت بحزن أنها لم تنزل إلا عندما سمعت صوت السيارة وأنها كانت تستطيع أن تنزل قبلاً لتحادثني ولو بموضوع امتحاني الذي سقطت فيه، وشعرت ببعض العزاء من الفكرة الأخيرة.

وأسرع أبي يقبل يدها ويقول:

– لقد قضيت ربع ساعة على رصيف المحطة وبيدي هذه الباقة وعلى شفتي ابتسامة حمقاء، شكرًا لله، لقد جئت، أتعرفين إلسا ماكنبورغ؟

وأجابت آن بلطف:

– أظن أننا تقابلنا، إن غرفتي بديعة وكان لطيفًا منك أن تدعوني يا ريمون، كنت تعبة جدًا.

كان أبي سعيدًا ينمق حديثه ويفتح زجاجات الشراب، أما أنا فكنت أذكر، بالتتابع، وجه سيريل المنفعل ووجه آن، هذين الوجهين اللذين رأيت العنف مرتسمًا عليهما، وأخذت أتساءل إذا كانت العطلة ستمر بالبساطة التي تحدث عنها أبي.

كان هذا العشاء الأول الذي جمعنا مرحًا، وراح أبي وآن يتحدثان عن معارفهما المشتركين رغم قلتهم، ولم أشترك بحديثهما إلى أن أعلنت آن أن شريك أبي محروم من الذكاء، كان رجلاً يكثر تناول الخمر ولكنه كان لطيفًا وقد قضينا معه، أنا وأبي، سهرات لا تنسى.

وأجبتها محتجة:

– إن "لومبار" ظريف، وإنني أعتبره مسليًا.

– لا شك أنك تقرّين بأن هذا لا يكفي، وحتى مزاحه فإنه..

– قد لا يكون له شكل الذكاء المعروف ولكنه..

وقاطعتني قائلة:

– إن ما تسمينه شكل الذكاء ليس إلا من آثار السنين.

وأعجبني تعبيرها كل الإعجاب، وشعرت برغبة في أن يكون أمامي دفتر صغير وقلم لأسجله، ولما أخبرت آن بذلك ضحك أبي وقال:

– إنك، على الأقل، لا تحملين ضغينة.

ولم يكن باستطاعتي أن أضمر ضغينة، لأن آن كانت تراعي دائمًا شعور غيرها، ولم يكن في حديثها أو تصرفاتها أي أثر للخبث.

لم يبد على آن، في تلك الليلة الأولى، أنها لاحظت سهو إلسا، المقصود أو العفوي، ودخولها غرفة أبي رأسًا، كانت قد أحضرت لي قميصًا من مجموعتها، ولكنها لم تدعني أشكرها، وقبل أن أخرج قالت:

– إنني أجد إلسا هذه لطيفة جدًا.

كانت تحدق في عيني دون أن تبتسم كأنها تبحث عن فكرة تجول في رأسي لتقضي عليها، وأجبتها:

– أجل، أجل، إنها.. فتاة لطيفة ومحببة.

وأضحكها لعثمتي فتركتها وأنا مضطربة، معلنة أني سأنام، وقد غفوت وأنا أفكر بسيريل متوقعة أنه في تلك اللحظة يراقص الفتيات في "كان".

الفصل الثالث

في صباح اليوم التالي، صحوت وشعاع محرق من الشمس يملأ سريري ويضع حدًا للأحلام الغريبة المتشابكة التي كنت أتخبط فيها، وحاولت، وأنا نصف نائمة، أن أبعد هذه الحرارة عن وجهي بحركة من يدي ثم عدلت.

كانت الساعة العاشرة، فنزلت، وأنا مرتدية "البيجاما"، إلى السطح حيث وجدت آن تتصفح الصحف، ولاحظت أنها استعملت بعض مساحيق التجميل، ولما لم تعرني أي انتباه جلست على درجة وأخذت أرتشف قهوتي وأمتص عصير برتقالة، وفجأة قالت آن:

– ألا تأكلين شيئًا يا سيسل؟

– أنني أفضل أن أشرب في الصباح لأني...

– يجب أن يزداد وزنك ثلاثة كيلوجرامات ليصبح شكلك جميلاً، إن وجنتيك غائرتان وضلوعك ظاهرة بوضوح، اذهبي لإحضار ما تأكلينه.

وأخذت أرجوها ألا تفرض عليَّ ذلك، وعندما حاولت أن تثبت لي أن هذا ضروري ارتفع صوت أبي يقول بمرح:

– يا له من مشهد فاتن: فتاتان سمراوان في الشمس تتحدثان عن الطعام.

وأجابته آن ضاحكة:

– هناك فتاة واحدة بكل أسف، فإنني بمثل سنك.

وانحنى أبي فوقها وأمسك بيديها، ونظرت آن إليه ورفت أجفانها اضطرابًا.

واغتنمت الفرصة لأنسحب، فالتقيت بإلسا على الدرج، كان واضحًا، من أجفانها المنتفخة وشفتيها الممتقعتين، أنها خارجة من السرير، وكدت أوقفها وأخبرها بأن آن تحت بكامل زينتها، كدت أحذرها، ولكنها كانت ستسيء فهمي ولا شك، كانت أصغر من آن بثلاث عشرة سنة، وهذا باعتقادها سلاح قوي.

ارتديت لباس البحر وأسرعت إلى الخليج، وأدهشني أن أرى سيريل هناك جالسًا على زورقه، وجاء لملاقاتي وأمسك بيدي وقد بدا عليه الجد وقال:

– أود أن أسألك العفو بشأن أمس.

وأجبته:

– كان الذنب ذنبي.

ولم أشعر بأي ارتباك بل إن تصرفه أدهشني.

وأضاف وهو يدفع الزورق إلى البحر:

– إنني ألوم نفسي كثيرًا.

وأجبته بمرح:

– ليس هناك ما يوجب ذلك.

كنت قد أصبحت في الزورق، وبقي سيريل واقفًا في الماء وقد أسند كفيه إلى جانب الزورق، وأدركت أنه لن يصعد قبل أن يتكلم فأخذت أتطلع إليه باهتمام، وأخيرًا غلبني الضحك فقال:

– لا تضحكي لقد لمت نفسي أمس، فليس هناك ما يحميك مني، لا والداك ولا تلك المرأة.

شعرت بأنه طيب وأنه مستعد لأن يحبني وأني أود أن أحبه، فلففت ذراعي حول عنقه وألصقت خدي بخده، وهمست بأذنه:

– إنك لطيف يا سيريل، وستكون لي أخًا.

وضم ذراعيه حولي وانتزعني من الزورق بغضب، وشدني إلى صدره بقوة فأسندت رأسي إلى كتفه.

في تلك اللحظة شعرت بأني أحبه، وعندما بحثت شفتاه عن شفتي أخذت أرتجف مثله من اللذة، وكانت قبلتنا بدون ندم أو خجل وقد تخللتها همسات رقيقة.

وأخيرًا أفلت منه وسبحت إلى القارب الذي بقي تحت رحمة الأمواج.

في الساعة الحادية عشرة والنصف ذهبت سيريل في الوقت الذي ظهر أبي و"امرأتاه" على الطريق الوعر المنحدر إلى البر، كان يسير بينهما ويسندهما مادًا يده إلى الواحدة تلو الأخرى. وعندما وصلوا إلى الشاطئ خلعت آن برنسها وتمددت على الرمل.

كانت رفيعة القوام ذات ساقين بديعتين، ولا شك بأن هذا نتيجة

سنوات من العناية والانتباه، ونظرت إلى أبي ورفعت حاجبي إعجابًا، ولكنه، لدهشتي، لم يجبني بل أغمض عينيه، وكانت إلسا، في هذه الأثناء، مشغولة بدهن جسمها بالزيت، ولم أعط أبي أكثر من أسبوع لكي يتخلص من...

والتفتت آن إليّ وسألتني:

– لماذا تستيقظين مبكرة هنا؟ كنت، في باريس، تبقين في الفراش حتى الظهر.

وأجبتها مازحة:

– كان لدي عمل، وهذا كاف لأن يجعلني أتكاسل.

ولكنها لم تبتسم، لم تكن تبتسم بدافع اللياقة أبدًا، بل عندما تشتهي ذلك.

– وامتحانك؟.

– لقد سقطت فيه!.

– يجب أن تنجحي في تشرين الأول.

وهنا تدخل أبي متسائلاً:

– لماذا؟ إنني لم أحصل على شهادة أبدًا، ومع ذلك فإنني أحيى حياة رفاهية.

– كانت لديك ثروة صغيرة عند البداية.

– ستجد ابنتي دائمًا رجالاً يتكفلون بإعالتها.

وأخذت إلسا بالضحك ولكنها ما لبثت أن توقفت أمام نظراتنا المستغربة.

وأغمضت آن عينيها لحسم الموضوع وقالت:

– يجب أن تعمل سيسيل في هذه العطلة.

ونظرت إلى أبي يائسة، فأجابني بابتسامة مرتبكة، وتخيلت نفسي أمام صفحات من "برغسن" وسطورها السوداء تتراقص أمامي بينما ضحكة سيريل تصل إلي من تحت.

وأفزعتني هذه الفكرة، فجررت نفسي إلى حيث جلست آن وناديتها بصوت خافت، وفتحت عينيها فأحنيت فوقها وجهًا قلقًا متوسلاً وأنا أغير وجنتيّ ليبدو عليّ الإرهاق الفكري وقلت لها:

– آن، لا أظنك ستفعلين بي هذا فتجعلينني أعمل في هذا الجو الحار، بينما أن صحتي بحاجة لهذه العطلة.

– يجب أن أفعل بك "هذا..." حتى في هذا الجو الحار كما تقولين، إنني أعرفك، فلن تنقمي عليّ أكثر من يومين ولكنك ستنجحين في امتحانك.

وأجبتها دون أن أضحك:

– هناك أشياء لا يفعلها المرء بغيره.

وألقت عليّ نظرة باسمة فعدت إلى التمدد على الرمل وقد انتابني القلق.

راحت إلسا تتحدث عن الحفلات التي تقام على السواحل ولكن أبي لم يجيبها، كان جالسًا في قمة المثلث المؤلف من أجسامهم، وكان يلقي على

شكل آن الجانبي وعلى كتفيها نظرات ثابتة أعرفها جيدًا، وكان يفتح كفه ويغلقه على الرمل بحركة ناعمة منتظمة.

ونهضت وركضت ألقي بنفسي في البحر وأنا أتحسر على العطلة التي كنا سنستمتع بها والتي سنحرم منها، كانت لدينا جميع عناصر المأساة: رجل فاتن وامرأة خفيفة وامرأة ذات شخصية.

ورأيت في قاع البحر صدفة بديعة تجمع بين اللونين الوردي والأزرق فغطست لألتقطها وأبقيتها في يدي حتى الغداء، وقد اعتبرتها جالبة للحظ فقررت أن أحتفظ بها طول الصيف، ولا أعرف لماذا لم أُضيعها كما أضيع كل شيء، إنها في يدي اليوم، وهي تجعلني أشعر برغبة في البكاء.

الفصل الرابع

في الأيام التالية أدهشني لطف آن الزائد نحو إلسا.

لم تكن تهتم بالأحاديث السخيفة التي تجري على لسان إلسا، واحدة من الكلمات التي تجيد انتقاءها والتي كانت كفيلة بأن تثير السخرية بإلسا، وكذلك حمدت لها سرًا، صبرها وكرمها ولكني لم أكن أدرك أن للبراعة دخلاً بذلك، إذ أن أبي سيمل، ولا شك، من هذا الاصطدام المتواصل، وهكذا كان شاكرًا لها ولم يكن يدري ما يجب عليه عمله ليعرب لها عن امتنانه، وبعد فقد كان هذا الامتنان عذرًا.

ولا شك أنه كان يحدثها كما يحدث امرأة محترمة جدًا، أو كما يحدث أمًّا ثانية لابنته. وكان يستخدم هذا السلاح متظاهرًا بوضعي بحراسة آن وبجعلها مسؤولة عني وذلك ليزيد في تقريبها إلينا وتعلقها بنا، إلا أن نظراته كانت موجهة إلى الأنثى التي يشتهي التعرف إليها في اللذة، وهي ذات النظرات التي تذوقتها أحيانًا لدى سيريل، والتي جعلتني أشعر برغبة في الهرب منه وإثارته ولكن يبدو أبي أكثر تأثرًا من آن إذ أنها كانت تقابل نظرات أبي بعدم اكتراث وبلطف هادئ يطمئنني.

وقد بلغت حد الاعتقاد بأني أخطأت أول يوم، دون أن ألاحظ أن هذا اللطف كان يزيد في إثارة أبي، وكان صمت آن الطبيعي الأنيق يصطدم بثرثرة السا الدائمة.

مسكينة إلسا... لم تكن ترتاب بشيء، ولكن لا شك بأنها فهمت،

يومًا، عندما انتبهت إلى إحدى نظرات أبي، ورأيتها قبل الغداء، تهمس بكلمات في أذنه، وبدا عليه الانزعاج لحظة ثم وافق مبتسمًا، وفيما كنا نتناول القهوة، نهضت إلسا واتجهت إلى الباب، وعندما وصلت إليه التفتت إلينا باسترخاء استوحته، ولا شك، من السينما الأمريكية، وقالت بصوت جمعت فيه كل الإغراء الفرنسي:

– أتأتي يا ريمون؟

واحمر أبي وهو ينهض وتبعها وهو يتمتم بكلام عن مزايا النوم بعد الظهيرة.

ولم تتحرك آن، وكان دخان لفافتها يتصاعد من بين أصابعها دون أن تهتم به، وشعرت بأن علي أن أقول شيئًا فقلت:

– يقول الناس بأن القيلولة مريحة، ولكنني أعتقد بأن هذه الفكرة خاطئة.

وتوقفت فجأة عن الكلام إذ أدركت معنى جملتي الخفي، وقالت آن بخشونة:

– أرجوك.

لقد أدركت فورًا النكتة السمجة وأخذت أنظر إلى وجهها الهادئ بتأثر، ولعلها كانت في تلك اللحظة تحسد إلسا بكل قواها.

وخطرت لي، لكي أغريها، فكرة وقحة سرتني مثل جميع الأفكار الوقحة التي تخطر لي، فقد كانت تشعرني باطمئنان مسكر. ولم أستطع الامتناع عن التحدث بها فقلت:

– لاحظي أن احتراق جسم إلسا في الشمس لا يجعل هذه "القيلولة" لذيذة بالنسبة لكليهما.

وكان يحسن بي أن أظل صامتة، فقد أجابتني آن:

– إنني أكره هذا النوع من الملاحظات، إنها، في سنك، أكثر من حمقاء، إنها مؤلمة.

وفجأة شعرت بنفسي أثور فهتفت:

– كنت أقول هذا مازحة، وبعد فإني واثقة، في قرارة نفسي، بأنهما سعيدان.

وأدارت نحوي وجهًا متعبًا فأسرعت أستغفرها، وعادت إلى إغماض عينيها وأخذت تتكلم بصوت خافت:

– إن نظرتك إلى الحب نظرة ساذجة، إنه ليس سلسلة من المشاعر المستقل بعضها عن بعض.

وتذكرت أن جميع مغامراتي العاطفية كانت هكذا كانت تأثرًا مفاجئًا أمام وجه أو حركة أو أثر قبلة، وكل ما أذكره منها لحظات سعيدة لا صلة بينها.

وتابعت آن كلامها فقالت:

– إن الحب شيء آخر، هناك الحنان الدائم والعذوبة والشوق. وهناك أشياء لا تستطيعين أن تفهميها.

ثم أشاحت بوجهها عني والتقطت إحدى الصحف، وكنت أفضل أن تغضب وأن تتخلى عن عدم اكتراثها بخطئي العاطفي، وفكرت بأنها محقة

وأني أعيش، كالحيوان، على حساب الآخرين وأني مسكينة ضعيفة، وأخذت أزدري نفسي وكان هذا يؤلمني كثيرًا لأني لم أعتد أن أحاكم نفسي.

صعدت إلى غرفتي وأخذت أحلم، وكانت كلمات آن تتردد في أذني: "إنه شيء آخر، إنه الشوق" هل اشتقت يومًا إلى أحد؟.

إنني لا أذكر حوادث هذين الأسبوعين، فلم أكن أريد أن أرى فيها، كما قلت، أي تهديد، أما ما جرى بعد ذلك فإني أذكره جيدًا لأني كنت أنتبه إليه وأشترك فيه بكل قواي، ولكن هذه الأسابيع السعيدة.

في أي يوم حدّق أبي بثغر آن ولامها، بصوت عال، لعدم اكتراثها وهو يتظاهر بالضحك؟، وفي أي يوم قارن بين رقتها ونصف بلاهة إلسا؟، كان اطمئناني يستند إلى تلك الفكرة السخيفة، وهي أنهما متعارفان منذ خمس عشرة سنة وأنهما، لو كانا سيتحابان، لكانا فعلا ذلك قبل الآن، وكنت أقول لنفسي:

"لو حدث هذا فسيعشق أبي آن ثلاثة شهور وستحتفظ آن، من كل هذا، بذكريات مثيرة وببعض الإهانة".

مع إني كنت أعرف أن آن امرأة ليس من السهل هجرها، ولكن سيريل كان هنا، وكان وجوده كافيًا ليشغل تفكيري، كنا نسهر كثيرًا سوية فنرقص في حانات "سان تروبيز" ونحن نتبادل كلمات الحب العذبة، ثم ننساها في الغد، وفي النهار، كنا نقوم برحلات على زورقه الشراعي، وكان أبي يرافقنا أحيانًا، وقد أعجب بسيريل، خاصة عندما تركه هذا الأخير يغلبه في سباق سباحة، كان يدعوه "صغيري سيريل"، وكان سيريل يدعوه "يا سيدي" ولكني كنت أتساءل عمن كان الرجل منهما.

ذهبنا، بعد ظهر أحد الأيام، لتناول الشاي بمنزل والدة سيريل، وقد حدثتنا هذه العجوز الهادئة الباسمة، بالمصاعب التي واجهتها كأرملة وأم، ووجه أبي إلى آن نظرات امتنان وأثنى كثيرًا على السيدة، وأقر هنا بأنه لم يكن يخشى أبدًا أن يضيع وقته، أما آن فقد كانت تبتسم ابتسامة محببة.

وفي أثناء العودة قالت أن السيدة بديعة، ولكني انفجرت أحمل على هذا النوع من العجائز، وكان جوابها ابتسامة متسامحة أثارتني فضحكت:

– إنكما لا تدركان أنها مسرورة من نفسها، وأنها تهنئ نفسها لأنها تشعر بأنها قامت بواجبها و..

وقاطعتني آن:

– ولكن هذا صحيح، لقد قامت بواجباتها كأم وزوجة، وسألتها:

-– وواجبها كبغي؟

– إنني لا أحب البذاءة، ولو كانت طريفة.

– إنني لا أقصد الطرافة، لقد تزوجت كما يتزوج جميع الناس، بدافع الرغبة أو لأن هذه هي العادة، ثم وضعت ولدًا، أتعرفين كيف يأتي الأولاد؟

وأجابت آن ساخرة:

– أقل مما تعرفين ولا شك! ولكن لديَّ بعض المعلومات!

– لقد قامت بتربية هذا الولد، وقد تكون تخلصت من هموم الفساد ومتاعبه، عاشت كما تعيش ألوف النساء وهي فخورة بذلك، كانت زوجة

وأمًا، من الطبقة الوسطى، ولم تفعل شيئًا لتغيّر وضعها، إنها تفخر بأنها لم تفعل هذا أو ذاك، وليس بأنها فعلت شيئًا.

وتدخل أبي قائلاً:

– إنني لا أجد معنى لهذا.

وهتفت:

– إنها تقول: "لقد قمت بواجبي"، لأنها لم تفعل شيئًا، ولو أصبحت، بعد ولادتها بوسطها هذا، من فتيات الشوارع لاستحقت الثناء.

وقالت آن:

– إن لديك أفكارًا رائجة اليوم، ولكنها بدون قيمة.

وربما كان هذا صحيحًا، كنت أعني ما أقول، ولكنني كنت أردد ما سمعته، ومع ذلك فإن حياتي وحياة أبي كانتا تسيران على هذا المبدأ. وكان ازدراء آن يجرحني، قد يتعلق المرء بأشياء تافهة كما يتعلق بأشياء أخرى، ولكن آن ما اعتبرتني يومًا مخلوقًا مفكرًا، وشعرت فجأة بدافع ملحّ إلى أن أغيّر نظرتها إليّ، وفي الوقت ذاته أقررت، بيني وبين نفسي، بأن آرائي ستتبدل بعد شهر وأن إيماني بهذه الفكرة أو تلك لن يدوم.

ترى كيف أستطيع أن أصبح ذات شخصية قوية؟

الفصل الخامس

كان لا بد أن تجيء النهاية، هكذا قرر أبي، في ذلك الصباح، أننا سنذهب لقضاء السهرة في "كان"، إنني أذكر سرور إلسا، فقد توقعت أن تعود إليها شخصية المرأة الخطرة، في جو الملاهي المعتادة عليه، وبعكس ما توقعت، لم تعارض آن هذه الفكرة، بل أنها حبذتها، وهكذا صعدت باطمئنان إلى غرفتي بعد العشاء، لأرتدي فستان السهرة الوحيد الذي أملكه.

وعندما عدت وجدت أبي ينتظر وقد ارتدى السموكنغ، فلففت ذراعي حلو عنقه وقلت له:

– إنك أجمل رجل أعرفه.

وأجاب دون أن يؤمن بما يقول:

– ما عدا سيريل.

وأضاف:

– إنك أجمل فتاة أعرفها.

وأجبته دون أن أؤمن بما أقول:

– بعد إلسا وآن.

– بما أنهما غائبتان وتسمحان لنفسيهما بجعلنا ننتظر، تعالي ارقصي مع والدك الكهل.

لم يكن يشبه الكهول بشيء، وكانت رائحة عطره المعتاد وتبغه تحيطان بي، وأخذ يرقص بإيقاع وقد أغلق عينيه نصف إغلاقة وارتسمت على شفتيه ابتسامة سعيدة، وقال وقد نسي آلام الروماتيزم:

– يجب أن تعلّميني رقصة الـ "بي بوب".

وتوقف عن الرقص ليستقبل إلسا بكلمة ثناء آلية، كانت تنزل الدرج بتمهل وقد ارتدت ثوبًا أخضر ورسمت على شفتيها ابتسامتها المفضلة، ابتسامة الكازينو. وقالت:

– أنذهب؟

قلت:

– إننا ننتظر آن.

وقال لي أبي:

– اصعدي واسأليها إذا كانت مستعدة، وإلا فإننا لن نصل إلى "كان" قبل منتصف الليل.

ارتقيت الدرج وأنا أتعثر بفستاني وقرعت باب غرفة آن، فصاحت تطلب مني الدخول، وفتحت الباب وجمدت على العتبة. كانت ترتدي فستانًا رماديًا قريبًا من الأبيض يضفي النور عليه بعض ألوان البحر. وكانت فاتنة، وهتفت:

– بديع! آن، إن ثوبك بديع!.

وابتسمت للمرآة كما يبتسم المرء لشخص سيغادره وقالت:

– إن هذا اللون الرمادي يلقى الإعجاب.

قلت:

– بل أنت التي تثيرين الإعجاب.

أمسكت آن بأذني وأخذت تنظر إليّ، كانت عيناها زرقاوان زرقة داكنة، ورأيتهما تشرقان وتبتسمان وهي تقول:

– إنك فتاة لطيفة، رغم أنك متعبة أحيانًا.

ومرت أمامي دون أن تدقق النظر بفستاني، وعندما أخذت تنزل رأيت أبي يتقدم لاستقبالها، ووقف عند آخر السلم وقد وضع قدمه على أول درجة ورفع وجهه إليها، وكانت إلسا تنظر إليها، إنني أذكر هذا المشهد جيدًا، أمامي كتفا آن البديعتان، وتحت قليلاً وجه أبي المذهول ويده الممدودة، وفي البعيد، إلسا، وقال أبي:

– آن، إنك فاتنة.

وابتسمت وهي تمر أمامه وأخذت معطفها قائلة:

– أنلتقي هناك؟ هل تأتين معي يا سيسيل؟

وقد تركتني أقود سيارتها وكان الليل جميلاً فأخذت أقود ببطء، ولم تكن آن تتكلم، ولم يبد عليها تسمع الموسيقى الصاخبة المنبعثة من جهاز الراديو، وعندما تجاوزتنا سيارة أبي عند أحد المنعطفات، لم تظهر انزعاجها، وأخذت أشعر بنفسي أمام حوادث لا أستطيع التدخل فيها.

وفي الكازينو قام أبي بمناورات بارعة أدت إلى تفرقنا، ووجدت نفسي

على المشرب مع إلسا وأحد معارفها، وهو رجل من جنوب أميركا يهتم بالمسرح، ورغم سكره قضيت ساعة جميلة بصحبته، ولكن إلسا كانت تشعر بالملل، لم تكن تهتم بالناحية الفنية من المسرح، وفجأة سألتني أين أبي، كما لو كنت أعرف ذلك، وابتعدت، وبدا الحزن على الأميركي الجنوبي لحظة ولكن كأس ويسكي أعادت إليه مرحه، وعندما أراد أن يراقصني بدا شكله مضحكًا، كنت مضطرة لأن أحمله تقريبًا وأن أسحب قدمي من تحت قدميه، وكنا نضحك بكل قوانا إلى درجة أني، عندما ربتت إلسا على كتفي ورأيت وجهها المكفهر، كدت أرسلها إلى الجحيم. قالت:

– إنني لم أجدهما.

كان وجهها كئيبًا وقد زالت المساحيق عنه، وشعرت فجأة بالحنق، فقلت لها بلهجة أضفيت عليها بعض الهدوء:

– إنني أعرف مكانهما، سأعود.

وما كدت أنسحب حتى فقد الأميركي الجنوبي توازنه ووقع بين ذراعي إلسا.

كان الكازينو واسع الأرجاء، وقد طفت فيه مرتين أو ثلاثًا دون نتيجة، ومررت بجميع أسطحته وأخيرًا خطرت لي السيارة، وعندما توصلت إليها رأيتهما في المرآة الأمامية، كانا ملتصقين يتبادلان نظرات عميقة فيما أخذت شفاهما تتحرك بحديث خافت، وشعرت بالغربة في العودة ولكنني تذكرت إلسا ففتحت الباب.

كانت يد أبي على ذراع آن وعندما شعرا بي ألقيا عليّ نظرة حالمة، قلت:

- هل تلهوان؟.

وسألني أبي بضيق:

- ماذا هنالك؟ ماذا تفعلين هنا؟.

- وأنت؟ إن إلسا تبحث عنك منذ ساعة.

وأدارت آن رأسها نحوي ببطء وقالت كمن يشعر بأسف:

- إننا عائدان إلى المنزل، قولي لها أني شعرت بالتعب وأن أباك رافقني، وعندما تنتهيان من اللهو عودا بسيارتي.

وأخذت أرتجف من الغيظ ووجدت الكلام بصعوبة، فقلت:

- عندما ننتهي من اللهو! ولكنكما لا تدركان ما يحدث! هذا مقرف!.

وقال أبي بدهشة:

- ما هو المقرف؟.

- إنك تصحب فتاة حمراء الشعر إلى البحر تحت شمس لا تستطيع تحملها، وعندما يحترق جسمها تهجرها. هذا سهل جدًا! ولكن ما الذي سأقوله لإلسا؟.

وكانت آن قد التفتت إليه فأخذ يبتسم لها دون أن يصغي إليّ، وثارت نقمتي إلى آخر حد فصحت:

– سوف... سوف أقول لها أن أبي وجد امرأة أخرى يرقد معها وأن عليها أن تمر في موعد آخر، أليس كذلك؟.

وبذات اللحظة سمعت صيحة أبي وشعرت بصفعة آن، وأخرجت رأسي بسرعة من الباب، لقد آلمتني، وقال أبي:

– اعتذري.

وبقيت جامدة قرب الباب وقد أخذت الأفكار تعصف برأسي وقالت آن:

– تعالي.

لم يكن في لهجتها تهديد فاقتربت منها، ووضعت يدها على خدي وحدثتني بلطف وبطء كما لو كنت لا أفهم بسرعة، قالت:

– لا تكوني شريرة، إنني آسفة لأجل إلسا، ولكنك تحسنين تدبير هذه الأمور برقة، سوف نتبادل الإيضاح غدًا، هل آلمتك؟.

وأجبتها بأدب:

– طبعًا.

وشعرت، بعد هذا اللطف المفاجئ وتصرفي الأهوج، برغبة في البكاء، ووقفت جامدة أنظر إليهما ينطلقان بالسيارة، وعدت بخطوات بطيئة إلى الكازينو وانضممت إلى إلسا والأميركي الجنوبي المتعلق بذراعها.

قلت بلهجة طبيعية:

– شعرت آن بانزعاج فاضطر أبي للعودة بها إلى المنزل، هل سنشرب شيئًا؟.

وظلت إلسا تحدق بي دون أن تجيب، وأدرت دعم كلامي فقلت:

– لقد تقيأت ولطخت ثوبها.

وبدا لي هذا التفصيل صارخًا بالحقيقة، ولكن إلسا أخذت تبكي بهدوء وحزن وهي تتمتم:

– سيسيل، سيسيل، لقد كنا سعداء.

وتضاعف نحيبها، وأخذ الأميركي الجنوبي ينتحب هو الآخر وهو يردد:

– كنا سعداء، سعداء جدًا.

في هذه اللحظة كرهت آن وأبي، وكنت مستعدة لأن أفعل كل شيء لأحول دون بكاء إلسا وذوبان مساحيق زينتها ونحيب ذلك الأميركي.

– لم ينته كل شيء يا إلسا، عودي معي.

وأجابت وهي تشرق بدموعها:

سأعود قريبًا لآخذ حقائبي، الوداع يا سيسيل، لقد كنا على تفاهم تام.

لم نكن قد تحدثنا إلا عن الأزياء والطقس ولكني شعرت مع ذلك، بأني أفقد صديقة قديمة، واستدرت فجأة مسرعة نحو السيارة.

الفصل السادس

استيقظت صباح اليوم التالي، لأجد نفسي مستلقية على السرير وأنا أشعر بجفاف الحلق وارتخاء الأعضاء، من أثر الويسكي الذي أفرطت في تناوله ليلة الأمس.

لم أشعر بالرغبة في مغادرة سريري أو حتى أن أبقى فيه، ورحت أتساءل عما سيكون موقف أبي وآن إذا عادت إلسا، وأجبرت نفسي على التفكير بهما حتى لا أنتبه إلى الجهد الذي أبذله لأنهض، ونهضت أخيرًا ووجدت نفسي حافية على بلاط الغرفة البارد، ونظرت إلى المرآة فإذا بها تطالعني بمنظر كئيب؛ عينان ذابلتان وشفتان منتفختان ووجه غريب هو وجهي.

هل أكون ضعيفة وجبانة بسبب هذه الشفة وهذه النسب وهذه الحدود الكريهة؟ وإذا كنت محدودة لماذا أدرك ذلك بهذا الوضوح؟ كنت ألهو بكره نفسي، كره وجه الذئب هذا الذي ألبسه التهتك طابعه، وأخذت أردد كلمة تهتك وأنا أحدق بعينيّ، وفجأة رأيت نفسي أبتسم، أي تهتك؟ بضع كؤوس وصفعة وبكاء!

نظفت أسناني ونزلت، كان أبي وآن على السطح وقد جلسا متجاورين أمام طعام الفطور وحييتهما ببرود وجلست أمامهما، ومنعني الحياء من النظر إليهما، ولكن استمرار صمتهما أجبرني على رفع عيني. كانا يبتسمان بسعادة، كمن قضى ليلة غرام ممتعة، وأثر بي هذا المشهد، فقد كانت السعادة دائمًا، بالنسبة إليَّ، تعويضًا عن كل شيء.

قال أبي:

– هل نمت جيدًا؟

– تقريبًا، لقد أكثرت من تناول الويسكي ليلة أمس.

وصببت لنفسي فنجان قهوة ولكني أعدته إلى مكانه فور تذوقها.. ولم أستطع تحمل صمتها فقلت:

– ماذا يجري؟، إنكما كمن يكتم سرًا.

– وأشعل أبي لفافة محاولاً التظاهر بالهدوء، وراحت آن تنظر إليَّ وقد بدا الاضطراب عليها، لأول مرة.

وأخيرًا قالت:

– أريد أن أسألك شيئًا.

وتوقعت أسوأ الأمور فسألتها:

– أهناك مهمة جديدة لدى إلسا؟.

وأدارت وجهها نحو أبي وقالت:

– قررنا، أنا ووالدك، أن نتزوج.

حدقت فيها بإمعان ثم التفت إلى أبي، وتوقعت إشارة منه، أو غمزة تثير ازدرائي وتطمئني بذات الوقت، ولكنه كان ينظر إلى يديه، وأخذت أقول لنفسي: "هذا مستحيل" ولكني كنت أعرف أنه الحقيقة.

وقلت محاولة أن أربح الوقت:

– هذه فكرة جيدة.

لم أكن أستطيع أن أفهم، هل اقتنع أبي، الذي عارض الزواج بقوة، في ليلة واحدة؟ كان هذا يبذل كل حياتنا ويحرمنا من استقلالنا، وتخيلت حياتنا نحن الثلاثة، وقد أصبحت فجأة متزنة بذكاء آن ونعومتها، هذه الحياة التي أحسدها عليها؛ أصدقاء أذكياء وسهرات سعيدة هادئة، وشعرت فجأة بأني أزدري السهرات الصاخبة والأميركيين الجنوبيين وشبيهات إلسا، وانتابني شعور بالرفعة والكبرياء.

وكررت وأنا أبتسم:

– إنها فكرة جيدة جدًا.

وقال أبي:

– يا قطتي الصغيرة، كنت واثقًا بأنك ستكونين سعيدة، كان السرور باديًا عليه، ورأيت وجه آن أكثر حنانًا مما رأيته في أي يوم مضى، وأضاف أبي:

– اقتربي يا قطتي..

ومدّ إليّ ذراعيه وجذبني إليه وإليها، كنت نصف راكعة أمامهما، وكانا ينظران إلي بلطف وهما يداعبان رأسي، أما أنا فلم أكف عن التفكير بأن حياتي ربما كانت تتحول الآن ولكني لم أكن بالنسبة إليهما، سوى قطة، أو حيوان صغير عطوف، كنت أشعر بهما فوقي، يجمعهما ماض ومستقبل وروابط لا أعرفها ولا تستطيع أن تقيدني.

أغمضت عيني وأسندت رأسي إلى ركبهما وشاركتهما بالضحك مستعيدة دوري، وبعد، ألم أكن سعيدة؟ كانت آن ممتازة ولم أجد لديها صغائر أبدًا، سوف تقودني وتخلصني من حياتي وتدلني على الطريق التي يجب أن أسلكها، وسأصبح مكتملة وسيكتمل أبي معي.

نهض أبي لإحضار زجاجة شامبانيا، كان سعيدًا، وهذا أكثر ما يهمني ولكنني غالبًا ما رأيته سعيدًا بسبب امرأة.

وقالت آن:

– كنت خائفة منك قليلاً.

وسألتها:

– لماذا؟

وقد شعرت، وأنا أسمعها بأن معارضتي كانت كفيلة بالحيلولة دون زواجهما.

وأجابت وهي تضحك:

– كنت أخشى أن تكوني خائفة مني.

وأخذت أضحك أيضًا، إذ أني، في الواقع، كنت خائفة منها بعض الخوف، وقد أفهمتني أنها تعرف ذلك وأني مخطئة بخوفي.

قالت:

– ألا يبدو لك زواج كهلين مضحكًا؟.

– لستما كهلين.

وقد قلت هذا وأنا مقتنعة به، لأني رأيت أبي عائدًا وقد حمل زجاجة وأخذ يرقص.

وجلس بجانب آن ولف ذراعه وراء كتفها، ومالت بجسمها إليه بحركة جعلتني أخفض نظري، لا شك أنها تتزوجه لأجل هذا، لأجل ضحكته وهذه الذراع القوية المطمئنة وحيويته وحرارته.

لم أفكر يومًا بآن كامرأة بل كوحدة متكاملة، لقد رأيت فيها الثقة بالنفس والأناقة والذكاء، ولكني لم أر فيها أبدًا الشهوة والضعف، وأدركت سبب فخر أبي: إن آن لارسن المتكبرة المتعالية تتزوجه، هل يحبها؟ وهل يستطيع أن يحبها طويلاً؟ وهل أستطيع التفريق بين هذه العاطفة والعاطفة التي كان يكنها لإلسا؟.

أغمضت عيني واستسلمت للشمس تشيع الارتخاء في أوصالي.

لم تأت إلسا في الأيام التالية، ومر أسبوع بسرعة، سبعة أيام سعيدة لذيذة، و... الوحيدة! كنا نرسم الخطط المعقدة لأنواع الأثاث والمواعيد، وكنت وأبي نشعر بلذة في الإكثار من الخطط يدفعنا جهلنا التام بها، وبعد، هل اعتقدنا يومًا أن هذا سيحدث؟ هل كان أبي يعتقد بأنه سيأتي إلى ذات المكان كل يوم لتناول الغداء بذات الساعة وبأنه سيتناول العشاء في منزله ويبقى فيه؟، ومع ذلك فإنه أخذ يطلق الحياة البوهيمية بجذل ويتعلق بالنظام والحياة البسيطة الأنيقة.

احتفظت، من هذا الأسبوع، بذكرى أستعيدها اليوم بلذة لأجرب

نفسي، كانت آن منطلقة لطيفة، وكان أبي يحبها، وكنت أراهما ينزلان، في الصباح، يستندان إلى بعضهما البعض ويضحكان وقد ارتسمت حول عيونهما هالات زرقاء، وأقسم أني كنت أود أن يستمر هذا طول العمر، وفي المساء، كنا ننزل غالبًا إلى الشاطئ نتناول كأسًا في إحدى القهاوي، وكان الناس في كل مكان، يعتقدون بأننا عائلة متحدة عادية، وكنت سعيدة لعودتي إلى القيام بالدور الطبيعي لمن كان بسني، بعد أن اعتدت الخروج وحيدة مع أبي وتلقي الابتسامات والنظرات الخبيثة أو المشفقة، وقد تقرر أن يعقد الزواج في "باريس" عند عودتنا.

كان سيريل يراقب تحولنا الداخلي بدهشة، ولكن هذه النهاية الشرعية سرته، وقد استمررنا في التجول بزورقه وتبادل القبل عندما يحلو لنا ذلك، وفيما كان يضغط بفمه على فمي كنت أتخيل وجه آن المتقلص في الصباح وحركاتها التي يرخيها الحب، وكنت أحسدها، ويقينًا لو أحبني سيريل أقل قليلاً لأصبحت عشيقته في ذلك الأسبوع.

ونعود في الساعة السادسة فيجر سيريل الزورق على الرمال ونتجه إلى المنزل عبر غابة الصنوبر، ونريد أن ندفئ أنفسنا فنتسابق ونختلق ألعابًا هندية، وكان سيريل يلحق بي دائمًا قبل المنزل فيلقي بنفسه فوقي وهو يطلق ضحكة الانتصار ويدحرجني على أشواك الصنوبر ويقبلني، وإنني أذكر طعم هذه القبلات اللاهثة وقرع قلب سيريل على قلبي بإيقاع ينسجم وصوت الأمواج على الرمل، واحدة، اثنتان، ثلاث، أربع قرعات قلب، ثم ذلك الصوت الناعم على الرمل، واحد، اثنان، ثلاثة.

وتهدأ أنفاس سيريل وتطول قبلته فلا أعود أسمع هدير البحر بل يطن في أذني غليان الدم في عروقي.

وفي إحدى الأمسيات فرّقنا صوت آن، كان سيريل مستلقيًا بجانبي وقد غمرت شمس المغيب جسمينا نصف العاريين بحمرة خفيفة، ولا ألوم آن لأن هذا المشهد أثارها، وقد اكتفت بأن لفظت باسمي بلهجة صارمة.

وقفز سيريل واقفًا وقد احمر خجلاً، ونهضت بدوري ببطء وأنا أنظر إلى آن التي التفتت إلى سيريل وقالت له بهدوء وكأنها لا تراه:

– أرجو ألا أراك ثانية.

ولم يجب وانحنى فوقي وقبل كتفي قبل أن يبتعد، وقد أدهشني تصرفه وأثر بي كعهد يقطعه على نفسه، وكانت آن تنظر إليَّ وكأنها تفكر بشيء آخر، وأثارني هذا، إذا كانت تفكر بشيء آخر فإنها تحظى بالإكثار من الكلام.

تقدمت منها وأنا أتظاهر بالارتباك، وامتدت يدها إلى عنقي ترفع شوكة صنوبر وبدا عليها أنها تراني، ورأيت وجهها يتحول ويرتدي قناع الازدراء والإعياء الذي يزيدها جمالاً ويخيفني قليلاً، وقالت:

– عليك أن تدركي أن هذا النوع من اللهو ينتهي عادة في المستشفى.

كانت تكلمني واقفة وهي مثبتة عينيها بي، بينما سادني الارتباك، كانت من النساء اللواتي يستطعن الكلام وهن منتصبات دون أن يتحركن، أما أنا فأحتاج إلى مقعد وشيء أمسكه ولفافة تبغ وإلى تحريك ساقي وأنا أنظر إليها.

قلت وأنا أبتسم:

– لا حاجة للمبالغة، لم أفعل سوى تقبيل سيريل، ولن يؤدي بي هذا إلى المستشفى.

وأجابتني وكأنها تشعر بأني أكذب:

– أرجوك ألا تعودي لمقابلته، لا تحتجي، إنك في السابعة عشرة وأشعر بأني مسؤولة عنك الآن، ولن ادعك تفسدين حياتك، وبعد فإن لديك عملاً وسيشغلك هذا بعد ظهر كل يوم.

وأدارت ظهرها وعادت إلى المنزل، بينما بقيت مسمرة في مكاني. كانت تعني ما تقول، وستقابل أعذاري ونفيي بقلة اكتراث أسوأ من الازدراء كما لو كنت غير موجودة وكأني لست أنا سيسيل التي تعرفها من زمن، والتي كانت تستطيع أن تعاقبني هكذا.

كان أبي أملي الوحيد. ولا شك أنه سيقول كالعادة:

– من هو هذا الشاب يا قطتي؟ هل هو جميل وصحيح الجسم؟ احذري السفلة يا صغيرتي.

كان عليه أن يتصرف هكذا وإلا قضي على عطلتي.

مر العشاء كالحلم المفزع، لم تقل لي آن: "لن أخبر والدك بشيء، فلست من الوشاة، ولكن عليك أن تعديني بان تعملي بجد"، فقد كانت تجهل هذا النوع من المساومات، وهنأت نفسي على ذلك ولكني، بذات الوقت، حنقت عليها لأنها لو قالت ذلك لكانت أتاحت لي أن أحتقرها، وقد تجنبت

هذا الخطأ، وبدا عليها أنها لم تتذكر الحادث إلاّ بعد تناول الحلوى، قالت:

– أود أن توجه بعض النصائح السديدة إلى ابنتك يا ريمون، فقد فاجأتها في غابة الصنوبر، هذا المساء، مع سيريل، وكانا منسجمين كل الانسجام.

وحاول أبي المسكين أن يحول الأمر إلى مزاح فهتف متظاهرًا بالدهشة:

– ماذا تقولين؟ ماذا كانا يفعلان؟.

وهتفت بدوري:

– كنت أقبله. وقد ظننت آن..

وقاطعتني قائلة:

– لم أظن شيئًا، ولكني أعتقد بأن الوقت قد حان لأن تكف سيسيل عن لقائه بعض الوقت وأن تعد شهادة الفلسفة.

وأجاب أبي:

– يا لها من صغيرة مسكينة، وبعد، إن سيريل فتى لطيف.

– وسيسيل أيضًا فتاة لطيفة، لذلك يسوؤني أن يقع لها حادث، ونظرًا للحرية التامة التي تتمتع بها هنا، وصحبة هذا الفتى واستهتارهما، أرى أن هذا ضروري، ألا ترى ذلك أنت الآخر؟.

وعند كلمتي "أنت الآخر" رفعت عيني بينما خفض أبي نظره بضيق وقال:

– لا شك انك محقة، وبعد، عليك أن تعملي قليلاً يا سيسيل، أتريدين أن تعيدي دراسة الفلسفة؟.

وأجبته باقتضاب:

– بماذا يهمني هذا؟

نظر إليّ ثم أشاح بعينيه، وأمسكت آن بيدي فوق المائدة وقالت:

– ستهجرين شخصية فتاة الغابات وتحلي محلها شخصية التلميذة المجتهدة مدة شهر واحد فقط، هل هذا خطير؟.

– أجل إنه خطير!.

وقد قلت هذا بصوت خافت جدًا حتى أنهما لم يسمعاني أو لم يرغبا بسماعي.

في صباح الغد وجدت نفسي أمام جملة لبرغسن.

"مهما كان الاختلاف الممكن العثور عليه بين الوقائع والسبب، ورغم التباعد بين قاعدة التصرف وتأكيد أسس الأمور، فقد استمد الناس قوة حب الإنسانية، من الاتصال بالمبدأ المولّد في الجنس البشري."

أخذت أردد هذه الجملة بصوت خافت في البداية، حتى لا تثور أعصابي، ثم بصوت مرتفع، ووضعت رأسي بين كفي ورحت أحدق بها، وأخيرًا فهمتها وشعرت بنفسي باردة وعاجزة كما كنت عندما قرأتها أول مرة.

لم أكن أستطيع الاستمرار، فرغم تمعّني بالسطور التالية هب فيّ شيء كريح عاصفة القاني على السرير.

أخذت أفكر بسيريل الذي ينتظرني عند الخليج الذهبي، وبتمايل المركب الناعم وبطعم قبلاته وبآن، وقد فكرت بها بصورة جعلتني أجلس على السرير

خافقة القلب وأنا أقول لنفسي أن هذا أحمق ومريع وأني لست سوى طفلة مفسودة كسولة وأن لا حق لي بالتفكير هكذا، ولكني استمررت، بالرغم مني، أفكر بها مضرة وخطرة وأن من الواجب إبعادها من طريقنا، وتذكرت العشاء الأخير وأنا أشد على أسناني، وكنت آخذ على آن أنها تدفعني لأن أزدري نفسي، كانت تمنعني من أن أحب نفسي، إنني، أنا المخلوقة للسعادة والود وعدم الاكتراث، أدخل معها عالمًا من التأنيب أضيع فيه، وبماذا كانت تأتيني؟.

وقدرت قوتها: لقد أرادت أبي فحصلت عليه، وستجعل منا شيئًا فشيئًا، زوج آن لارسن وابنة زوجها أي أنها ستحولنا إلى شخصين مقيدي التصرف حسني التربية وسعيدين، إذ أنها ستجعلنا سعيدين، وكنت أتخيل السهولة التي سنستسلم بها لجاذب القيد، وقد بدأ أبي يفترق عني، وتذكرت، وأنا أشعر برغبة في البكاء، حياتنا الماضية ومرحنا ونحن عائدان في السيارة، عند الفجر، عبر شوارع باريس البيضاء، لقد انتهى كل هذا، سوف تؤثر آن بي، أنا الأخرى، وتسيطر عليّ وتوجهني، ولن يؤلمني هذا أبدًا، إذ أنها ستستخدم الذكاء والسخرية والذوق دون أن أستطيع مقاومتها، ولن أعود أشعر برغبة في ذلك بعد ستة شهور.

لقد أصبح واجبًا أن انتفض وأستعيد أبي وحياتنا الماضية، وبدت لي السنتان اللتان مضتا فجأة ساحرتين مع أني أنكرتهما منذ أيام.

كنت أسعى إلى حرية التفكير، التفكير السيئ، التفكير القليل، وحرية اختيار حياتي واختيار نفسي، ولا أستطيع أن أقول أن أصبح أنا نفسي إذ أني لم أكن سوى عجينة لينة ترفض القالب.

إنني أعرف أن بالإمكان نسب هذا التحول إلى أسباب معقدة وأن بالإمكان إلباسي عقدًا نفسية بديعة، محب قوي أكنه لأبي أو عاطفة عدائية نحو آن، ولكني أعرف الأسباب الحقيقية، إنها الحرارة وبرغسن وسيريل، أو بالأحرى غياب سيريل، وقد قضيت طول بعد الظهر أكر بالأمر ووصلت إلى هذا الاكتشاف، وهو أننا تحت رحمة آن.

لم أكن معتادة على التفكير وقد أثار هذا أعصابي، وعند العشاء لم أفتح فمي، وظن أبي أن عليه أن يجعل هذا هدفًا للمزاح فقال:

– إن ما أحبه في الشباب هو حماسته وحديثه.

تطلعت إليه بعنف وقسوة، صحيح أنه يحب الشباب وكم تحدثنا عن الحب والموت والموسيقي، وشعرت بأنه يهجرني ويجردني من سلاحي، ونظرت إليه وأنا أفكر:

"لم تعد تحبني كالماضي، إنك تخونني".

وأخذت أحلو إفهامه ذلك دون أن أتكلم، ونظر إلي وبدا عليه الذهول فجأة كأنه أدرك أن الأمر لم يعد لعبًا وأن تفاهمنا أصبح في خطر،

والتفتت آن إليّ وقالت:

– إن التعب باد عليك، وإنني أشعر بالندم لإجبارك على العمل.

لم أجبها، فقد كنت أكره نفسي كثيرًا لخلقي هذه المأساة التي لا أعرف كيف أوقفها.

كان قد انتهينا من العشاء، وعلى السطح، في المربع المضيء الصادر

من نافذة غرفة الطعام، رأيت يد آن، تلك اليد الطويلة النابضة بالحياة، تتأرجح وتلتقي بيد أبي، فتذكرت سيريل، كم اشتهيت أن يضمني بين ذراعيه، على هذا السطح، ويداعبني ويواسيني ويصالحني مع نفسي، وصمت أبي وآن؛ كانت أمامهما ليلة حب وكان أمامي برجسن!

حاولت أن أبكي لأثير شفقتي على نفسي، فقد كنت أشفق على آن كما لو كنت واثقة من التغلب عليها.

القسم الثاني

يدهشني صفاء ذكرياتي الذي ابتدأ من تلك اللحظة، فقد أخذت أولي الآخرين وأولي نفسي انتباهًا أكثر، وقد تأثرت بتلك الأيام إلى حد جعلني أفكر وأراقب نفسي كيف أعيش، ومررت بجميع متاعب المراقبة الداخلية دون أن أصالح نفسي، وكنت أفكر:

"إن هذا الشعور نحو آن غبي، كما أن الرغبة بإبعادها عن أبي متوحشة."

ولكن لماذا أحاكم نفسي؟ ألست حرة بالإحساس بما يحدث؟ وأول مرة في حياتي بدا لي أن "أنا" تنقسم، وقد وجدت أعذارًا مقنعة وأخذت أهمس بها لنفسي، وفجأة برزت "أنا" أخرى ترد على حججي، وقضيت ساعات كاملة في غرفتي لأجد إذا كان للخوف والعداء، اللذين توحي بهما آن إليّ، أسبابهما أم إذا لم أكن سوى فتاة أنانية مفسودة تتمتع بحرية خاطئة.

وفي هذه الأثناء كنت أزداد هزالاً يومًا بعد يوم. وكان عملي ينحصر بالنوع على الشاطئ وتناول الطعام، وكنت أحتفظ بصمت قلق يربكهما، ورحت أراقب آن بلا توقف وأقول لنفسي وأنا أتناول الطعام:

"هذه الحركة التي وجهتها إليه أليست حبًا، من النوع الذي لن يعرف مثله؟، وكيف أنقم عليها بعد هذه الابتسامة النامّة عن القلق؟"

وفجأة أسمعها تقول:

– عندما نعود إلى باريس يا ريمون...

وهنا تصدمني فكرة أنها ستشاركنا حياتنا وتحشر نفسها فيها، وأقول لنفسي:

"إنها باردة ونحن حاران، إنها متسلطة ونحن مستقلان، إنها لا تكترث بالناس بينما نعجب بهم، إنها متحفظة ونحن مرحان، إننا وحدنا حيّان وسوف تتسلل بيننا بطمأنينتها وستستمد الحرارة منا، وستسلبنا كل شيء كالأفعى الجميلة."

وأخذت أردد لنفسي: "أفعى جميلة... أفعى جميلة!".

ومدت إليّ يدها بالخبز وفجأة أفقت فصحت بنفسي:

"ولكنك مجنونة يا سيسيل، هذه آن، آن الذكية، التي اعتنت بك، إن برودها شكل من أشكال حياتها، أما عدم اكتراثها فأنه يحميها من ألوف الصغائر، إنه دليل النبل".

أفعى جميلة، وشعرت بنفسي أمتقع خجلاً، وأخذت أنظر إليها وأتوسل إليها بيني وبين نفسي، أن تسامحني، وكانت أحيانًا تفاجئ هذه النظرات فتظهر الدهشة على وجهها وتقطع جملتها، وتأخذ تسعى بنظراتها إلى أبي، فيجيب عليها بنظرات إعجاب أو رغبة ولا يبدو عليه أنه يفهم سبب هذا القلق، وهكذا أفلحت شيئًا فشيئًا في جعل الجو خانقًا، وكنت أكره نفسي لذلك.

كان أبي يتألم بقدر ما كان بإمكانه أن يتألم، أي قليلاً، إذ أنه كان مجنونًا بآن، وفي أحد الأيام، فيما كنت مستلقية على الشاطئ بعد حمام الصباح، جلس بجانبي وأخذ ينظر إليّ، وشعرت بنظراته تثقل عليّ، وكنت أوشك أن

أنهض أقترح عليه النزول إلى الماء عندما وضع يده على رأسي وقلا بلهجة قلقة:

– آن، تعالي انظري إلى هذه الجرادة كم هزلت، إذا كان هذا من تأثير العمل فيجب أن تتوقف.

كان يعتقد، ولا شك، بأنه يدبر كل شيء وكان هذا ممكنًا قبل عشرة أيام، ولكني وصلت إلى أبعد من هذا في التعقيد فلم تعد ساعات العمل بعد الظهر تزعجني، إذ أني لم أفتح كتابًا منذ برغسن.

اقتربت آن، وبقيت مستلقية على الرمل وأنا منتبهة لوقع خطاها وجلست في الجهة الأولى وهمست:

– صحيح أن هذا يؤذيها، وبعد كان يكفيها أن تعمل فعلاً بدلاً من الدوران في غرفتها.

استدرت وأخذت أنظر إليهما، كيف عرفت أني لم أكن أعمل؟ لعلها أدركت حتى أفكاري، إذ أنها لا تعجز عن شيء، وأفزعتني هذه الفكرة فقلت محتجة:

– إنني لا أدور في غرفتي.

وسألني أبي:

– أتفتقدين ذاك الفتى؟

– لا!.

كنت كاذبة قليلاً، ولكن الوقت لم يتسع لي، في الواقع، لأفكر بسيريل.

وأضاف أبي:

– ومع ذلك فإن صحتك ليست على ما يرام، آن، أترينها؟ إنها تشبه الدجاجة التي أفرغت ووضعت في الشمس لتحمر.

وقالت آن:

– يا صغيرتي سيسيل، ابذلي مجهودًا، اعملي قليلاً وكلي كثيرًا إن هذا الامتحان هام.

وقاطعتها قائلة:

– لا يهمني الامتحان! أتفهمين؟ لا يهمني!.

وأخذت أحدق بها بقوة لتدرك أن الأمر أخطر من أي امتحان، وكان عليها أن تقول لي: "إذن ماذا هنالك؟" وأن تلاحقني بالأسئلة وتجبرني على إخبارها بكل شيء، وعند ذاك ستقنعني وتقرر ما تريد، وتطهرني من هذه الإحساسات العدائية، ولكنها ظلت تنظر إليَّ بانتباه ورأيت اللوم ظاهرًا في عينيها الزرقاوين، وأدركت أنها لن تفكر أبدًا باستجوابي لأن هذا لن يخطر لها ولأنها تعتقد بأن هذا لا يجوز.

ألقيت بنفسي بعنف على الرمل، وضغطت بخدي على تلك الحرارة الناعمة وتنهدت وأنا أرتجف قليلاً، ووضعت آن يدها على عنقي وجمّدتني لحظة حتى يهدأ اضطرابي وقالت:

– لا تخلقي المشاكل في حياتك، لقد أصبحت، أنت التي لم تعرفي غير

المرح والحركة والابتعاد عن التفكير، مفكرة حزينة، إن هذه الشخصية لا تليق بك.

وأجبت:

- إنني أعرف ذلك، إنني المخلوق الصغير الصحيح الجسم الذي لا يعرف غير المرح والغباوة.

وقالت:

- هيا لتناول طعام الغداء.

كان أبي قد ابتعد لكرهه هذا النوع من المناقشات، وفي الطريق أمسك بيدي واحتفظ بها بيده، كانت يدًا خشنة مشجعة: لقد مسحت دموعي عند أولى لوعاتي الغرامية وأمسكت بيدي في لحظات الطمأنينة والسعادة الكاملة، وضغطت عليها خفية بين الضحكات العالية، هذه اليد على مقود السيارة أو على المفاتيح، في الليل، تبحث عبثًا عن ثقب القفل، هذه اليد على كتف امرأة أو لفائف تبغ، هذه اليد لم تعد تستطيع شيئًا لأجلي.

وشددت بقوة عليها، فالتفت نحوي وابتسم.

الفصل الثاني

مرّ يومان تعبت فيهما من الدوران في غرفتي، لم أكن أستطيع التخلص من هذه الفكرة؛ سوف تقضي آن على حياتنا، ولم أسع للقاء سيريل، الذي كان قادرًا على طمأنتي وإشاعة السعادة في قلبي، فلم أكن أشعر برغبة في ذلك، ورحت أتعمد طرح أسئلة لا جواب لها على نفسي وتذكر الأيام الماضية والخوف من الأيام المقبلة.

كان الحر شديدًا، ورغم إغلاق مصاريع النوافذ الخشبية فإن الجو ظل ثقيلاً، وبقيت مستلقية على سريري وأنا أحدق بالسقف وأتحرك بين دقيقة وأخرى، باحثة عن قطعة باردة من فراشي، ووضعت عددًا من الأسطوانات الهادئة على "البيك آب" ورحت أدخن بكثرة؛ كنت حزينة تائهة.

وبعد الظهر، قرعت الخادمة باب غرفتي وقالت بلهجة غامضة: "يوجد شخص تحت"، وخطر لي فورًا أنه سيريل، فنزلت ولكنني وجدت إلسا، وأسرعت تضغط على يدي وتقول:

– جئت آخذ حقائبي، لقد ابتاع جوان لي بعض الفساتين ولكنها لا تكفي.

وتساءلت لحظة من يكون جوان هذا ثم تركت هذه الفكرة، فقد سرني لقاء إلسا، ولما قلت لها هذا أكدت لي أننا كنا دائمًا على وفاق لأن لدينا نقاطًا مشتركة.

اقترحت عليها أن نصعد إلى غرفتي حتى لا تقابل أبي وآن، وعندما ذكرت أبي لم تستطع أن تمنع حركة من رأسها، وهذا ما جعلني أظن أنها لا تزال تحبه، رغم جوان وفساتينه.

وفي غرفتي أصغيت إليها تتحدث عن الحياة الساحرة التي قضتها على الشاطئ، وشعرت بان أفكارًا غريبة تولد في نفسي، وبأن جزءًا منها مستوحى من وجود إلسا.

وصمتت أخيرًا ومشت بضع خطوات في الغرفة وسألتني، دون أن تلتفت "إذا كان ريمون سعيدًا"، وفجأة اصطخبت في رأسي مجموعة من الخطط والمشاريع، وبذات اللحظة عرفت ما عليّ أن أقوله لها:

– "سعيد"، هذه مبالغة! فآن لا تدعه يعتقد بشيء آخر، إنها بارعة جدًا.

وتنهدت إلسا وقالت:

– جدًا!.

– لن يخطر لك ما أقنعته بان يفعل، سوف تتزوجه.

وأدارت نحوي وجهًا مكفهرًا وهتفت:

– تتزوجه؟ هل يريد ريمون أن يتزوج؟

– أجل، إن ريمون يريد أن يتزوج.

وشعرت برغبة قوية في الضحك، وأخذت يداي ترتجفان، وبدا الذهول على إلسا كأني ضربتها على رأسها، وكان عليّ ألا أدعها تفكر وتستنتج أنه

لا يستطيع قضاء حياته مع العشيقات وأن عليه أن يتزوج يومًا، وانحنيت نحوها وخفضت صوتي فجأة لأؤثر بها وقلت:

– يجب ألاّ يحدث هذا يا إلسا، إنه يتألم، ليس هذا الأمر ممكنًا، إنك تدركين ذلك جيدًا.

وأجابت:

– أجل.

وأضفت:

– كنت أنتظر، إنك وحدك قادرة على مقارعة آن، إنك وحدك تملكين السلاح الكافي.

وكان لديها كل الاستعداد لتصديقي، ولكنها اعترضت قائلة:

– ولكنه يحبها ولا شك، طالما أنه سيتزوجها.

وأجبتها بلطف:

– إنك تعرفين أنه يحبك أنت، لا تحاولي التظاهر بأنك تجهلين ذلك.

ورأيت أجفانها ترف وهي تستدير لتخفي اللذة والأمل اللذين خلقتهما لها، كنت أتصرف بسرعة وأنا مدركة تمامًا ما عليّ أن أقوله لها، قلت:

– لقد حدثته عن اتزان المنزل بالزواج وعن الأخلاق، وأقنعته...

كنت أشعر بوطأة كلامي إذ أنه كان يعبر عن مشاعري الخاصة بشكل بدائي خشن.

وأضفت:

– إذا تم عقد زواجهما قضي علينا نحن الثلاثة يا إلسا، علينا أن ندافع عن أبي، إنه طفل كبير، طفل كبير.

وأخذت أردد "طفل كبير" بقوة حتى بدت الشفقة في عيني إلسا، وأكملت حديثي بلهجة تمثيلية:

– ساعديني يا إلسا، إنني أطلب منك هذا لأجلك ولأجل أبي ولأجل حبكما.

وسألتني إلسا:

– ولكن ماذا أستطيع أن أفعل؟ يبدو لي هذا مستحيلاً، وأجبتها باللهجة التي يسمونها محطمة:

– إذا كنت تعتقدين ذلك مستحيلاً فلنعدل عنه.

وهمست إلسا:

– يا لها من ساقطة!.

– هذا هو الوصف اللائق بها.

وبدا على إلسا أنها تعود إلى الحياة، لقد هُجرت، وستُري تلك الدساسة ما تستطيع أن تفعله، هي، إلسا ماكنبورغ، ثم إن أبي يحبها، إنها واثقة بذلك. وهي نفسها لم تنس جاذبية ريمون.

– إلسا، اذهبي إلى سيريل واطلبي منه إيواءك، سيتدبر أمره مع والدته،

قولي له أني سأذهب للقائه صباح غد، وسنبحث الأمر نحن الثلاثة، وعندما وصلنا على الباب أضفت مازحة:

– إنك تدافعين عن مصيرك يا إلسا.

ووافقت على قولي بجد كأنها لا تملك عشرين مصيرًا، بعدد الرجال الذين ينفقون عليها، وأخذت أنظر إليها تنصرف تحت الشمس وأعطيت أبي أسبوعًا فقط لكي يشتهيها ثانية.

كانت الساعة الثالثة والنصف، ولا شك أنه نائم، بهذه اللحظة، بين ذراعي آن، وأخذت أرسم الخطط بسرعة ودون توقف، وأنا أسير في غرفتي فأذهب إلى النافذة ألقي نظرة على البحر الهادئ وأعود إلى الباب، كنت أحسب وأستنتج وأقضي على الاعتراضات بالتدريج، وشعرت بنفسي حاذقة خطرة، وانضم، إلى موجة القرف التي انتابتني ضد نفسي منذ بدأت حديثي مع إلسا، شعور بالكبرياء والوحدة.

هل أنا بحاجة لأن أقول أن كل هذا انهار في ساعة الاستحمام؟ لقد أخذت أرتجف ندمًا أمام آن، ولم أكن أعرف ماذا عليّ أن أفعل لأكفر عن ذنبي، حملت حقيبتها وأسرعت أفتح لها برنسها عند خروجها من الماء وأحطتها بالعناية والكلمات اللطيفة، وقد أدهشها هذا التبدل السريع، بعد الصمت الذي لزمته في الأيام الأخيرة، وسر هذا أبي بينما أخذت آن تشكرني بابتسامة وتجيبني بمرح، وتذكرت: "يا لها من ساقطة! – هذا هو الوصف اللائق بها" كيف قلت هذا عنها، وقبلت حماقات إلسا؟، سوف أنصحها غدًا بالرحيل وأقر لها بأني أخطأت، وستعود حياتنا إلى سابق عهدها، كما

أني سأتقدم إلى الامتحان! لا شك أن البكالوريا ضرورية.

– أليس كذكلك؟.

كنت أكلم آن.

– أليست البكالوريا ضرورية؟.

نظرت إليَّ وانفجرت ضاحكة، وشاركتها الضحك، وقد سرني أن أراها مرحة، وقالت:

– إنك غريبة الأطوار.

صحيح أني كنت غريبة الأطوار، ولو عرفت ما كنت أنوي عمله لازداد استغرابها لأطواري، وشعرت برغبة شديدة في أن أحدثها به لترى إلى أي حد بلغت في غرابة الأطوار، فأقول لها مثلاً:

"تصوري أني جعلت إلسا تشترك في المهزلة؛ ستتظاهر بأنها مغرمة بسيريل فتقيم بمنزله ونراهما يمران في زورقه ونقابلهما في الغابة وعلى الشاطئ، لقد عادت إلسا جميلة كالسابق، صحيح أنها ليست بجمالك ولكن لها جمالاً يجعل الرجال يلتفتون عندما يمرون بها، وما كان أبي سيتحمل ذلك طويلاً فلم يتحمل،في حياته، رؤية امرأة، امتلكها، تتعلق بغيره بسرعة، وخاصة برجل أصغر منه سنًا، إنك تدركين يا آن أنه كان سيشتهيها بسرعة رغم حبه لك، وكانت إلسا ستفعل، حسب تعليماتي، كل ما عليها عمله، وسيأتي يوم يخونك فيه فلا تستطيعين تحمل ذلك، أليس كذلك؟ إذ أنك لست من اللواتي يقبلن بالمشاركة، وعندها ترحلين، وهذا ما كنت أريد، إنني حمقاء، لقد حنقت

عليك بسبب برغسن والحر، كنت أتخيل... ، إن هذا مضحك إلى حد أني لا أجرؤ على التحدث إليك به، كنت، بسبب البكالوريا، سأسيء إلى علاقتك بنا، أنت صديقة أمي وصديقتنا، مع أن البكالوريا ضرورية أليس كذلك؟".

– أليس كذكلك؟.

وسألتني آن:

– ماذا؟ إن البكالوريا ضرورية؟.

– أجل.

وبعد، يحسن بي ألا أقول لها شيئًا، لأنها لن تفهمني، كانت هناك أمور لا تفهمها، وقفزت إلى الماء ألحق بأبي وأتعارك معه، وعدت فوجدت لذة اللعب والحياء والضمير المرتاح، سأبدل غرفتي غدًا وسأقيم في "التتخيتة" مع كتبي المدرسية، ولكنني لن أحمل كتب "برغسن"!، وسأقضي ساعتين كل يوم وحيدة تحيط بي رائحة الحبر والورق، وتخيلت نفسي وقد نجحت في تشرين الأول سأصبح ذكية ومثقفة مثل آن.

الفصل الثالث

ذهبت إلى بيت سيريل وأنا أقل ثقة بنفسي مما كنت، فقد أكثرت من تناول الخمر على العشاء، وشرحت لأبي أني سأعد ليسانس الآداب وسأعاشر العلماء، وأني أرمي أن أصبح شهيرة، وأن عليه أن يجند جميع وسائل الدعاية ليعرفني إلى الناس، وتبادلنا أفكارًا خيالية وارتفع ضحكنا عاليًا وشاركتنا آن الضحك، ولكنها كانت تمتنع عن الضحك عندما يتخطى حديثي حدود اللياقة، أخيرًا أرقداني في سريري، وقد شكرتهما بحرارة وسألتهما ما الذي أستطيع عمله بدونهما، وفيما كانت آن تنحني فوقي أغفيت.

في الصباح، اتجهت نحو غابة الصنوبر وأنا لا أعير البحر وطيوره أي اهتمام، ووجدت سيريل عند مدخل الحديقة، وقفز إليّ وضمني بقوة إلى صدره وهو يهمس لاهثًا:

– يا حبيبتي، لقد أمضني القلق، قضيت فترة طويلة، كنت أجهل ما تفعلين وإذا كانت هذه المرأة تجعلك تعيسة، لم أكن أدري أن تعاستي تبلغ هذا الحد، كنت أقضي بعد ظهر جميع الأيام أمام الخليج، لم أكن أعتقد بأني أحبك بهذه القوة.

وأجبته:

– ولا أنا.

وأقر بان هذا أدهشني وأثر بي، وشعرت بالأسف لعجزي عن الإعراب له عن مبلغ تأثري.

قال:

– كم أنت ممتقعة! سأعني بك، بعد الآن، ولن أدع أحدًا يسيء معاملتك.

وسألت سيريل عما قالته والدته فأجاب:

– لقد قدمت إلسا إليها على أنها صديقة يتيمة، وبعد فأنتها لطيفة، لقدر روت لي كل شيء، غريب كم يخفي هذا الوجه النبيل دسًا وخداعًا.

قلت بصوت ضعيف:

– لقد بالغت إلسا كثيرًا، وقد أردت أن أقول لها...

وقاطعني سيريل:

– وأنا الآخر لدي ما أقوله لك، أريد الزواج بك يا سيسيل. وانتابني الفزع لحظة، يجب أن أفعل أو أقول شيئًا، وأضاف وهو يقبل شعري:

– إنني أحبك. سأتخلى من دراسة الحقوق فإن عمي يعرض عليّ عملاً، لقد بلغت السادسة والعشرين ولم أعد طفلاً، إنني جاد بقولي، فما رأيك؟.

وأخذت أبحث عن جملة جميلة تحمل معنيين، لم أكن أريد أن أتزوجه، كنت أحبه ولكنني لم أرغب يومًا بالزواج به، لم أكن أريد أن أتزوج بأحد، فقد كنت تعبة.

وتمتمت:

– هذا مستحيل، إني أبي...

ولكن سيريل قاطعني:

– سأتكفل بأبيك.

وأضفت:

– لن تقبل آن، إنها ما زالت تعتبرني طفلة، وإذا رفضت فأن أبي سيرفض أيضًا، إنني تعبة يا سيريل، أنهكتني هذه الانفعالات، لنجلس، هذه إلسا.

أجلستني إلسا وهي تحيطني بالعناية كما لو كنت خارجة من السجن وسألتني:

– كيف حال ريمون؟ هل علم بأني جئت؟

وظهرت على وجهها ابتسامة سعيدة كابتسامة الذي صفح وهو يأمل، ولم أكن أستطيع أن أقول لها أن أبي نسيها، وأقول له أني لا أريد الزواج به.

أغمضت عيني، وذهب سيريل يأتي بالقهوة، وأخذت إلسا تتكلم بكثرة، كانت تثق بي، وبعد أن شربنا القهوة قالت:

– لقد بحثت طويلاً فلم أجد حلاً.

وقال سيريل:

– لا يوجد أي حل، إنها قضية سيطرة ولا حيلة في هذا.

وقلت بدوري:

– هناك حل، إن خيالكما ضيق.

وشعرت بالغرور وأنا أرى اهتمامهما بكلامي، كانا يكبرانني بعشر سنين ومع ذلك لم تخطر لهما أية فكرة، وقلت:

– إنها قضية فراسة.

وتكلمت طويلاً وشرحت لهما خطتي، وقابلاني بذات الاعتراضات التي قابلت بها نفسي في الأمس، وشعرت بلذة كبيرة وأنا أقضي عليها، وتحمست وأنا أحاول إقناعهما، وبرهنت لهما أن هذا ممكن، وبقي عليَّ أن أقنعهما بألا يفعلا ذلك ولكني لم أجد حججًا منطقية.

وقال سيريل:

– إنني لا أحب هذه المؤامرات، ولكنني سأتبناها إذا كانت الوسيلة الوحيدة للزواج بك.

وقلت:

– ليس الأمر خطأ آن تمامًا.

وقالت إلسا:

– إنك تعرفين أنها إذا بقيت سوف تجعلك تتزوجين من تشاء.

ربما كان هذا صحيحًا، وتراءت لي آن وهي تقدم لي، يوم بلوغي

العشرين، شابًا يحمل الليسانس، ذكيًا، متزنًا، مخلصًا ينتظره مستقبل باهر، وأخذت أضحك.

وقال سيريل:

– أرجوك، لا تضحكي، قولي أنك ستشعرين بالغيرة عندما أتظاهر بحب إلسا، كيف خطر لك هذا؟ هل تحبينني؟

كان يتكلم بصوت خافت، وابتعدت إلسا لتتركنا نتكلم بحرية وأخذت أنظر إلى وجه سيريل الأسمر وعينيه الداكنتين، إنه يحبني، وقد أوحى لي هذا بشعور غريب، واقترب وجهه مني حتى مست شفتاه شفتيّ، وبقيت جالسة مفتوحة العينين، وسرت رجفة خفيفة في شفتيه اللتين ما لبثتا أن انفرجتا وازداد ضغطهما، كانت قبلته بارعة جدًا، وأدركت أني مخلوقة لتقبيل فتى في الشمس أكثر مني لإعداد الليسانس، وانفصلت عنه وأنا ألهث بينما قال:

– سيسيل، يجب أن نعيش معًا، سأقوم بالمؤامرة مع إلسا.

وأخذت أتساءل إذا كانت حساباتي صحيحة، كنت روح المهزلة ومخرجتها، وكان باستطاعتي أن أوقفها.

وقال سيريل:

– إن لديك أفكارًا غريبة.

نظرت إليه وإذا بي أجده جميلاً فاتنًا فلم أشعر إلا وأنا أهمس بأذنه:

– قبلني، قبلني بسرعة.

وهكذا أطلقت المهزلة، بالرغم مني، بدافع الكسل والفضول، وتمر بي لحظات أفضل فيها لو أني فعلت هذا عمدًا بدافع الحقد حتى أستطيع اتهام نفسي، وليس الكسل والشمس وقبلات سيريل.

بعد ساعة، غادرت المتآمرين وأنا أشعر بالضيق، وبقي لدي بعض الحجج لطمأنتني؛ قد نكون خطتي ضعيفة أو قد يدفع أبي حبه لآن إلى حد الإخلاص لها، ثم إن سيريل وإلسا عاجزان عن العمل بدوني، وسأعثر على عذر لإيقاف اللعبة إذا بدا على أبي أنه يتأثر بها، ولا شك بأن التجربة ستكون مسلية، وستظهر صحة تقديراتي النفسانية أو خطأها.

وفوق كل هذا كان سيريل يحبني ويريد الزواج بين وإذا كان يستطيع الانتظار سنة أو سنتين، حتى أبلغ سن الرشد، فإنني سأقبل، وتخيلت نفسي أعيش مع سيريل وأنام قربه ولا أغادره أبدًا، سنذهب كل يوم أحد، لتناول الغداء مع آن وأبي، وقد ترافقنا والدة سيريل.

وجدت آن على السطح وهي تستعد للحاق بأبي على الشاطئ، وسألتها عما كانت تنوي قوله لي قبل أن أنام فرفضت أن تجيبني وهي تضحك، مدعية بأن هذا سيؤلمني، ووجدنا أبي خارجًا من الماء بكتفيه العريضتين وبدا لي بديعًا.

سبحت مع آن قليلاً ثم تمددنا، نحن الثلاثة على صدورنا، أنا في الوسط وهما على جانبيّ.

هنا بدا الزورق في طرف الخليج ناشرًا أشرعته، ورآه أبي قبلنا فقال ضاحكًا:

– لم يعد سيريل يتحمل، أنسامحه يا آن؟ وبعد، إن هذا الفتى لطيف.

رفعت رأسي وقد شعرت بالخطر، بينما أضاف أبي:

– ولكن ماذا يفعل؟ إنه يدور حول الخليج، ولكنه ليس وحيدًا...

ورفعت آن رأسها،كان الزورق يوشك أن يمر أمامنا، وتبينت وجه سيريل ورجوته، بداخل نفسي، أن ينصرف، وهتف أبي:

– ولكن... ولكن هذه إلسا! ماذا تفعل هناك؟.

والتفت إلى آن قائلاً:

– إن هذه الفتاة مدهشة!، لا شك أنها سحرت هذا الفتى المسكين وجعلت أمه تتبناها.

ولكن آن لم تكن تصغي إليه،كانت تنظر إليّ، وصمدت لنظرتها ثم أرحت وجهي على الرمل وقد اعتراني الخجل، ومدت يدها ووضعتها على عنقي وهمست:

– انظري إليّ، هل أنت حاقدة عليّ؟.

فتحت عينيّ: كان في نظرتها قلق وبعض التوسل، كانت هذه أول مرة تنظر إليّ فيها كما ينظر الناس إلى مخلوق حساس مفكر، ولم تفعل هذا إلا في اليوم الذي..

أدرت رأسي بعنف إلى أبي لأتخلص من هذه اليد، وعادت آن تهمس:

– يا صغيرتي المسكينة إن الخطأ خطأي فما كان علي أن أكون بهذه الصرامة، لم أقصد إيلامك، أتصدقين هذا؟.

راحت تداعب شعري وعنقي بحنان، ولم أتحرك، فقد انتابني ذات الشعور الذي أحس به عندما تجرف موجة الرمل تحتي، وشعرت بالرغبة في أن أوقف المهزلة وأعهد بحياتي إليها حتى النهاية..

أغمضت عيني وشعرت بأن قلبي توقف عن الخفقان.

الفصل الرابع

بدت الدهشة على وجه أبي، حينما أخبرته الخادمة بأن إلسا جاءت لأخذ حقيبتها ثم انصرفت على الفور، ولا أعرف لماذا لم تخبره باجتماعنا.

أبي وآن أحاطاني بعناية ولطف وجدتهما لذيذين، وبعد، حتى ولو كان الذنب ذنبي، فإنني كنت أتألم لرؤية سيريل وإلسا متخاصرين وعليهما أمارات التفاهم التام، لم أعد أستطيع التجول بزورق سيريل ولكنني أصبحت أرى إلسا مكاني والريح تتلاعب بشعرها، كما كانت تتلاعب بشعري.

لم أجد أية صعوبة في التظاهر بالعبوس عندما نقابلهما، إذ أننا كانا نقابلهما في كل مكان، في غابة الصنوبر وفي القرية وعلى الطريق، وكانت آن تلتفت إليّ بسرعة فتحدثني بموضوع آخر وتضع يدها على كتفي لتواسيني، وتأكد لي أبي لو كنت حقًا متألمة لما وجدت من يساعدني أكثر منها.

وتركت الأمور تسير على هواها بدون قلق إذ أني لم ألاحظ على أبي أي مظهر من مظاهر الغيرة، وكان هذا يثبت لي تعلقه بآن، ويؤلمني قليلاً لإظهاره أن خططي فاشلة، وفي أحد الأيام كنا عائدين من مركز البريد فالتقينا بإلسا، ولم يبد عليها أنها رأتنا، واستدار أبي يلاحقها بنظره وأطلق صفيرًا طويلاً، ثم قال:

– لقد ازدادت إلسا جمالاً.

وأجبته:

– إن الحب يفيدها.

– يبدو أنك استسلمت للأمر الواقع..

قلت:

– وماذا تريدني أن أفعل؟ إنهما في سن واحدة، وهذا طبيعي!.

– لولا وجود آن لما كان هذا طبيعيًا أبدًا.

كان يغلي غضبًا، وأضاف:

– هل تظنين أن فتى يستطيع سلبي امرأة إذا لم أوافق؟.

وأجبته:

– إن للعمر حقه!.

وهز كتفيه ولم يجب، وفي أثناء العودة لاحظت أنه مشغول البال، ربما كان يفكر بأن إلسا وسيريل شابان فعلاً، وبأنه، بزواجه بامرأة من سنه، يخرج من فئة الرجال الذين لا تاريخ ميلاد لهم، وهزني شعور بالفوز، وعندما رأيت على أطراف عيني آن بعض التجاعيد حنقت على نفسي، ولكن كان سهلاً عليّ أن أتبع نزواتي ثم أندم.

ومر أسبوع، ولا شك بأن سيريل وإلسا ينتظرانني كل يوم، لجهلهما تطورات القضية، ولم أكن أجرؤ على الذهاب إليهما خوفًا من ان يدفعاني للإيحاء إليهما بأفكار جديدة، وبعد فقد كنت أصعد بعد الظهر إلى غرفتي لكي "أعمل"، والواقع أني لم أكن أفعل شيئًا، فقد وجدت كتاب "يوغا" وانكببت عليه بكل نشاط وأنا أكبت، بين الفينة والفينة، موجة الضحك التي تنتابني، خوفًا من أن تسمعني آن.

وفي أحد الأيام لففت نفسي بمناشف استحمام لأصبح شبيهة بالهنود، ووضعت قدمي اليمنى على فخذي الأيسر وأخذت أحدّق بقوة بنفسي في المرآة، وأنا آمل بأن أصل إلى سمو "اليوغي"، وفجأة قرع الباب، وظننت أنها الخادمة، ولما كانت لا تهتم بشيء فقد رفعت صوتي أدعوها للدخول.

ولكنها كانت آن. وجمدت لحظة على عتبة الباب، وابتسمت قائلة:

– بماذا تلعبين؟.

وأجبتها:

– "باليوغا" ولكنها ليست لعبًا بل فلسفة هندية.

اقتربت آن من الطاولة وأخذت كتابي، وساورني القلق، كان مفتوحًا على الصفحة المائة، وكانت الصفحات السابقة مغطاة بملاحظات بخطي مثل "غير ممكنة لتحقيق" أو "متعبة"، والتفتت إليّ قائلة:

– إنك دقيقة في أعمالك، ولكن ماذا حل بالدراسة التي قلت أنك تعدينها عن "باسكال"؟.

وكنت قد ذكرت جملة لباسكال في أثناء الطعام وتظاهرت بأني فكرت بها كثيرًا، ولم أكتب بهذا الموضوع طبعًا.

بقيت جامدة في مكاني، ونظرت آن إليّ مليًا وفهمت، وقالت بصوت جاف:

– إذا شئت أن تهملي عملك وتقومي بحركات جنونية أمام مرآتك فهذا

شأنك!، أما أن تكذبي على أبيك وعليّ فهذا لا يجوز، وبعد فقد أدهشني نشاطك الفكري المفاجئ.

وخرجت وتركتني مذهولة في مناشفي، لم أفهم لماذا سمت هذا "كذبًا"، لقد حدثتها عن الدراسة لأسرها ولكن ها هي تفاجئني بازدرائها، وكنت قد اعتدت على موقفها الجديد مني ولذا أثارني احتقارها إلى آخر حد.

رميت المناشف عني وارتديت قميصًا وسروالاً وخرجت راكضة، كانت الحرارة شديدة ورغم ذلك أخذت أركض تدفعني ثورة عنيفة من الغضب المختلط بالخجل.

وصلت أخيرًا إلى دارة سيريل فصعدت رأسًا إلى غرفته، وكان قد دلني عليها يوم زرنا والدته، وفتحت الباب فإذا به راقد وقد أسند خده إلى ذراعه.

ناديته بصوت خافت ففتح عينيه وقفز واقفًا عندما رآني وهو يهتف:

– أنت؟ كيف جئت إلى هنا؟

أشرت إليه بألا يرفع صوته لأن والدته، إذا جاءت وجدتني في غرفته، ستظن... وبعد، من لا يظن...

وشعرت فجأة بالفزع فاستدرت متجهة إلى الباب ولكن سيريل صاح:

– إلى أين تذهبين؟ عودي، سيريل!.

وأمسك بذراعي واحتجزني وهو يضحك، والتفت إليه فإذا به ممتقع اللون كما كنت أنا ولا شك، وأحاطني بذراعيه وجرني إلى السرير، وأخذت أفكر: "كان لا بد أن يحدث هذا. كان لا بد أن يحدث هذا"...

وتتابعت عليّ مراحل الحب العنيف: الخوف الذي يمهد الطريق للشهوة واللطف والثورة، ثم ذلك الألم الشديد وفي أعقابه اللذة المنتصرة.

بقيت ساعة بجانب سيريل، وأنا مذهولة، لقد سمعت مرارًا أن الحب شيء سهل. وقد وصفته بنفسي هكذا، كما يصفه الجهلة الذين بسني، وشعرت بأني لن استطيع أبدًا أن أتحدث عنه بهذا الاستهتار.

وأخذ سيريل، المستلقي بجانبي، يتحدث عن الزواج بي والاحتفاظ بي بجانبه طول حياته، وأقلقه صمتي، فانتصبت جالسة ونظرت إليه ودعوته "عشيقي"، ثم قبلت الشريان النابض في عنقه وهمست: "سيريل، حبيبي".

ولما هممت بمغادرته سألني إذا كنت حانقة عليه، فضحكت، كيف أحنق عليه وقد أذاقني طعم السعادة؟

عدت أجر قدميّ عبر غابة الصنوبر، وعندما اقتربت من المنزل وجدت آن جالسة على مقعد طويل تقرأ، وكنت قد أعددت كذبات مقنعة لأبرر غيابي ولكنا لم تلق عليّ أي سؤال، وجلست قربها بصمت وتذكرت أننا متخاصمتان، وأغمضت عينيّ نصف إغماضة وأنا أحاول تهدئة أنفاسي السريعة وارتجاف أصابعي، وتراءى لي جسم سيريل فازداد قرع قلبي.

أخذت لفافة وأشعلت عود ثقاب سرعان ما انطفأ. وأشعلت عودًا آخر بعناية، لأنه لم يكن هناك هواء لإطفائه بل أن يدي كانت ترتجف، ولكنه انطفأ عند ضغطه على لفافتي، وأخذت عودًا ثالثًا، وفجأة، ودون أن أدري لماذا، أصبحت لهذا العود أهمية حيوية بالنسبة إليّ، ربما لأن آن أخذت تنظر إليّ بانتباه.

واختفى العالم من حولي ولم اعد أرى غير عود الثقاب وإصبعي عليه والعلبة الرمادية ونظرة آن، وأخذ قلبي يقرع بجنون فضغطت بأصابعي على العود وأشعلته، وفيما كنت أدنو بوجهي منه غطته لفافتي وأطفأته.

تركت العلبة تسقط من يدي وأغمضت عينيّ، وشعرت بثقل نظرة آن المتسائلة، وامتدت يداها ترفعان رأسي فشددت أجفاني خوفًا من أن ترى نظرتي، وأحسست بدموع الإعياء والارتباك تنساب على وجنتي.

وكأنما عدلت عن إلقاء أي سؤال، فأرخت يديها وتركتني، وبعد لحظة دست لفافة مشتعلة بين شفتي وعادت إلى كتابها.

لقد حاولت أن أعطي، هذه الحركة معنى رمزيًا، ولكنني اليوم، عندما أفشل في إشعال لفافة، أعود فأتخيل تلك اللحظة الغريبة، ووطأة نظرة آن والشعور بالفراغ الذي أحاط بي...

الفصل الخامس

كانت آن من الأشخاص الذين لا يفضلون الحلول الوسط، بعد أيام، وفيما كنا نتناول طعام العشاء، جرت بيننا مناقشة حادة حول فروض العطلة، وقد أظهرت الاستهتار إلى حد أغضب أبي ودفع آن إلى إقفال باب غرفتي عليّ بالمفتاح، جرى كل هذا دون أن يرفع أحدنا صوته.

لم أعرف بما فعلته آن، ولما شعرت بالظمأ وأدرت فتح الباب أدركت أني سجينة، وانتابني الفزع، فركضت إلى النافذة ولكن الخروج منها كان مستحيلاً، واستدرت وألقيت بنفسي على الباب فآلمت كتفي، وحاولت اغتصاب القفل وأنا أشد على أسناني، إذ أني لم أشأ أن أصرخ ليأتي من يفتح لي، ولكني تركت فيه مقص أظافري.

وقفت في الغرفة جامدة ومنتبهة للهدوء الذي أخذ يشيع في نفسي مع انتظام أفكاري، كانت هذه أول مرة أصدم فيها بالقسوة، وأخذت أشعر بها تلتف حولي، وتمددت على سريري ورسمت خطة بعناية.

في الساعة السادسة جاء أبي يفتح لي، ونهضت آليًا عند دخوله، ونظر إليّ دون أن يضحك فابتسمت ابتسامة آلية أيضًا.

وقال:

– أتريدين أن نتحادث؟.

أجبت:

– عن أي شيء؟ إننا كلانا نكره هذا النوع من المناقشات التي لا تؤدي إلى نتيجة.

وبدا عليه الارتياح وقال:

– صحيح، على كل يجب أن تكوني لطيفة وصبورة مع آن.

وأدهشني قوله: أنا، أكون صبورة مع آن!، إنه يعكس الوضع ويعتبر آن امرأة يفرضها على ابنته.

وقلت:

– لقد أسأت التصرف، وسأعتذر الآن.

– هل.. هل أنت سعيدة؟.

– طبعًا، وبعد، إذا استمر اصطدامي بآن فإنني سأسرع بالزواج وأحل المشكلة.

كنت أعرف أن هذا الحل سيؤلمه.. وقد أجاب بسرعة:

– ليس هذا موضوع بحث، هل تقبلين بهجري بهذه السرعة؟، فلا نكون قد عشنا معًا سوى سنتين..

آلمتني الفكرة أنا الأخرى،وتراءت لي اللحظات التي كنت أذهب فيها لأبكي على صدره وأحدثه عن السعادة المفقودة والعواطف الملتهبة،

أجبت:

– إنني أبالغ، إننا نتفاهم أنا وآن، ويكفي أن يتساهل كل منا قليلاً.

وقاطعني قائلاً:

– طبعًا، طبعًا.

ولا شك بأنه أدرك أن التساهل سيكون من جهتي فقط.

وأضفت:

– إنني أعرف تمامًا أن آن على صواب دائمًا، وأن حياتها أكثر نجاحًا من حياتنا..

وحاول الاحتجاج ولكنني تابعت الكلام:

– بعد شهر أو شهرين أكون قد تشربت بجميع آراء آن، وهكذا لن نصطدم بعد الآن، ولكن هذا يحتاج إلى بعض الصبر.

وأجاب بصوت ضعيف:

– لا تبالغي، إنني أقر بأني جعلتك تعيشين حياة لا تناسب سنك أو... سني ولكنها لم تكن حياة تافهة أو تعيسة، وبعد، فإننا لم نكن.. تعيسين جدًا خلال هاتين السنتي،. ولا يجوز أن ننكر كل شيء، لأن نظرة آن للحياة تختلف قليلاً عن نظرتنا.

وأجبته باقتناع:

– لا يجوز أن ننكر هذا بل يجب أن نتخلى عنه.

– طبعًا.

ونزلنا معًا فقدمت اعتذاري إلى آن التي أجابتني أن هذا ليس ضروريًا

وأن الحرارة ولا شك هي السبب في خصامنا.

ثم قابلني سيريل في غابة الصنوبر حسب اتفاقنا وأخبرته بما عليه أن يفعل، وقد أصغى إليّ بخليط من الخوف والإعجاب ثم أخذني بين ذراعيه ولكن الوقت كان قد تأخر وكان لا بد أن أعود إلى المنزل، وقد أدهشتني الصعوبة التي لقيتها في الابتعاد عنه!

الفصل السادس

اصطحبت أبي في الغد للنزهة، وكنا نتحدث بمرح، وفي أثناء عودتنا إلى البيت اقترحت عليه أن ندخل غابة الصنوبر.

كانت الساعة العاشرة والنصف، أي أني لم أتأخر عن الموعد! وقد سار أبي أمامي لضيق الطريق، وعندما وقف أدركت أنه رآهما، واقتربت منه فوجدت سيريل وإلسا متمددين على أشواك الصنوبر، وعلى وجهيهما دلائل السعادة.

كنت قد أوصيتهما بتمثيل هذا الدور، ولكنني عندما رأيتهما شعرت بشيء يتمزق في صدري، أيمنع حب إلسا لأبي وحب سيريل لي، أن يكونا جميلين يقرّب شبابهما منهما؟.

نظرت إلى أبي فوجدته يحدق بهما وقد امتقع وجهه، وأمسكت بذراعه وقلت:

– دعنا لا نوقظهما، لننصرف.

وألقى نظرة أخيرة على إلسا ثم استدار وسار بسرعة، وهو يردد:

– السافلة! السافلة!.

– لماذا تقول هذا؟ أليست حرة؟.

– لا أقصد هذا. هل أعجبك مشهد سيريل بين ذراعيها؟.

– لم أعد أحبه.

وصاح غاضبًا:

– وأنا الآخر لم أعد أحب إلسا، ولكن تصرفها يؤلمني، لقد... عشت معها، وهذا أسوأ بكثير...

كنت أعرف أن هذا أسوأ وأكثر إيلامًا!، ولا شك بأنه شعر بذات الرغبة التي شعرت بها وهي الانقضاض عليهما وتفريقهما واستعادة ملكه، أو ما كان ملكه.

قلت مؤنبة:

– إذا سمعتك آن...

– ماذا؟ إذا سمعتني آن؟ لا شك بأنها لن تفهم أو أنها ستشعر بصدمة، وهذا طبيعي، ولكن أنت؟ إنك ابنتي أليس كذلك؟، لم تعودي تفهمينني، هل صدمت أنت الأخرى؟

– إنني لم أصدم، ولكن علينا أن نواجه الحقائق؛ إن ذاكرة إلسا قصيرة وسيريل يعجبها أي أنك فقدتها، خاصة بعد تصرفك حيالها، وهو تصرف لا يغتفر.

وهتف أبي:

– إذا شئت...

وسكت وقد أفزعته فكرته، ولكنني أجبته، كما لو كان طبيعيًا أن نبحث حظه من النجاح في استعاد إلسا:

– لن تنجح.

وأجاب، وقد استعاد اتزانه:

– ولكني لا أفكر بذلك.

– هذا طبيعي!

وهززت كتفي، وكانت هذه الهزة تعني:

"هذا مستحيل أيها المسكين، إنك مسحوب من المعركة."

لم يحدثني باقي الطريق، وعندما وصلنا ضم آن بين ذراعيه وأبقاها ملتصقة به وقد أغمض عينيه، بينما تركته هي يفعل، باسمة مستغربة، وخرجت من الغرفة واستندت إلى حاجز الممر وأنا أرتجف خجلاً.

وفي الساعة الثانية سمعت صفير سيريل فنزلت إلى الشاطئ، واستقللنا زورقه، كان البحر خاليًا من الزوارق بسبب هذه الشمس المحرقة، وما كدنا نبتعد عن الشاطئ حتى أنزل الشراع والتفت إليّ وقال:

– هذا الصباح..

ولكنني قاطعته وأنا ألهث:

– اسكت! آه! اسكت!.

ومددني بهدوء، كنا نسبح في العرق وقد اعترى الارتباك والعجلة حركاتنا، بينما أخذ الزورق يتمايل تحتنا بانتظام، وأخذت أنظر إلى الشمس فوقي، وفجأة امتلأت أذناي بهمس سيريل وإذا بالشمس تغادر مكانها وتنفجر وتسقط فوقي،

أين كنت؟ في قعر البحر، في آخر الزمن، في خضم اللذة، ودعوت سيريل بصوت عال ولكنه لم يجبني، فلم يكن بحاجة لأن يجيبني.

ثم أنعشني الماء المالح، وأخذنا نضحك باسترخاء وامتنان متبادل، كان لدينا الشمس والبحر والضحك والحب، هل نعود فنجدها، مثل ذاك الصيف، وبمثل الجمال الذي أضفاه عليها الخوف والندم؟.

ومرت الأيام، ونسيت قيلاً آن وأبي وإلسا، فقد جعلني الحب أعيش في حلم وأنا مفتوحة العينين، وسألني سيريل إذا كنت لا أخشى أن أحمل منه، فأجبته أني أترك القرار له وبدا عليه أنه وجد ذلك طبيعيًا، فقد يكون سبب استسلامي له أنه ما كان ليحملني تبعة شيء، وهكذا، إذا حملت، فسيكون هو المذنب، كان يأخذ على عاتقه ما لم أستطع يومًا تحمله، وأعني التبعات.

في هذه الأثناء بدأ صبر إلسا ينفد، وأخذت تلاحقني بأسئلتها، وكنت أخشى أن أفاجأ وأنا برفقتها أو رفقة سيريل، وقد نجحت إلسا في أن تضع نفسها دائمًا في طريق أبي.

ولم يبد على آن أنها لاحظت انشغال أبي بالتفكير بإلسا، إذ أنه كان يحيطها بحرارة أكثر من ذي قبل، وقد أفزعني تصرفه لأني اعتبرت موقفه نتيجة لتأنيب ضميره، وكان المهم أن لا يحدث شيء خلال ثلاثة أسابيع، إذ سنعود، عند ذاك، إلى باريس فتذهب إلسا في طريقها ويتزوج أبي وآن، وفي باريس، سأجد سيريل، وتخيلت غرفته وقطعة السماء التي سأراها من نافذتها وأنا مستلقية، بجانبه، على السرير الضيق..

الفصل السابع

ضرب أحد أصدقائنا موعدًا لأبي في "سان رافايل" للشراب معا، ففرح لأنه سوف يفلت قليلاً من هذه العزلة الاختيارية، فقمت بإبلاغ إلسا وسيريل أننا سنكون في حانة "سولاي" في الساعة السابعة وأنهما إن حضرا فسيجداننا هناك، وكانت إلسا، لسوء الحظ، تعرف ذلك الصديق، فازدادت رغبتها في الذهاب، وقالت ببساطة:

– إن شارل ويب يعبدني، وإذا رآني فسيدفع ريمون للعودة إليَّ.

وفي الساعة السادسة بعد الظهر انطلقنا بسيارة آن، كنا نحن الثلاثة في المقعد الأمامي خاضعين معًا للذة السرعة والريح وربما لميتة واحدة.

التقينا بشارل ويب وزوجته في الحانة، كان ويب يعمل في الدعاية المسرحية بينما تهتم زوجته بإنفاق المال الذي يربحه بسرعة وعلى شبان وسيمين، وقد ظل مدة طويلة عشيق إلسا.

أما زوجته فقد كانت شريرة، ولم تكن آن تعرفها ورأيت وجهها يتخذ بسرعة شكل الازدراء والسخرية الذي يتخذه عادة في المجتمعات العامة.

وأخذ شارل ويب يتحدث بسرعة كالعادة وهو يلقي على آن نظرات مستفسرة، وبدا عليه أنه يتساءل عما تفعله بصحبة ريمون وابنته، ومال أبي إليه وأعلن فجأة:

– لدي نبأ لك يا صديقي، سنتزوج أنا وآن، في الخامس من تشرين الأول.

نظر إليه ثم إليها وبدل عليه أنه لم يفهم، بينما ظهر الامتعاض على زوجته فقد كانت تميل إلى أبي، وأخيرًا صاح ويب:

– تهانئي الحارة، إن هذه فكرة بديعة! يا سيدتي العزيزة، إذا كنت تتكفلين بهذا العربيد فأنت بديعة!، يجب أن نحتفل بهذا النبأ السار.

وبدا الابتسام والارتياح على آن، وهنا تبدل وجه ويب وهتف:

– إلسا! يا إلهي! هذه إلسا، إنها لم ترني، أرأيت يا ريمون كم ازدادت هذه الفتاة جمالا!؟.

وأجاب أبي بسرور:

– أرأيت ذلك؟.

ولاحظت آن لهجة أبي فأدارت وجهها ناحيتي، لتقول أي شيء فقلت لها:

– آن، إن أناقتك تجذب الأنظار، هناك رجل لا يحول عينيه عنك.

قلت هذا بصوت مرتفع كفاية ليسمعه أبي، والتفت بسرعة ورأى الرجل فقال وهو يمسك بيد آن:

– إنني لا أحب هذا..

وقالت السيدة ويب بسخرية:

– كم هما لطيفان! شارل، كان عليك ألا تزعج هذين العاشقين وتكتفي بدعوة سيسيل الصغيرة فقط..

وأجبتها بدورن مواربة:

– ما كانت سيسيل الصغيرة ستأتي.

– لماذا؟ ألديك عشاق بين الصيادين؟.

وحاولت التظاهر بالمرح فقلت:

– طبعًا.

– وهل تصطادين كثيرًا؟.

كانت، فوق هذا، تعتبر نفسها خفيفة الظل، وانتابني الغضب فأجبتها:

– أجل، رغم أنني لا أتعامل مع القوادين!.

وخيم الصمت فجأة، ولكن صوت آن ارتفع قائلاً:

– ريمون، أتريد أن تطلب قشة من الخادم؟ إنها ضرورية لتناول عصير البرتقال.

وأخذ شارل ويب يتحدث عن المرطبات وراح أبي يحاول كتم موجة الضحك، التي انتابته، بالانشغال بكأسه، بينما وجهت آن نظرها إليّ نظرات متوسلة، وأخيرًا قررنا تناول العشاء معًا.

أكثرت من تناول الخمر على العشاء، كنت أريد أن أنسى مظاهر القلق، التي تبدو على آن عندما تنظر إلى أبي، ودلائل الامتنان حين تلتفت نحوي.

بعد العشاء ذهبنا إلى إحدى حانات سان رفايل، وبعد وصولنا بقليل وصل سيريل وإلسا، ورآهما شارل ويب فقال:

– من هذا العاشق؟ إنه صغير السن.

التفتُّ إلى آن، كانت تنظر إلى إلسا بهدوء ولا مبالاة كما اعتادت النظر إلى عارضات أزيائها، وأعجبت بها لحظة لخلوها من الصغائر والغيرة، وبعد، فإني لم أتصور أنها تغار من إلسا، فقد كانت أجمل منها بمائة مرة. ولما كنت ثملة فقد قلت لها هذا، وحدقت بي بفضول وقالت:

– أصحيح أنك تجدينني أجمل من إلسا؟.

– بدون أي شك.

– إن قولك مسر، ولكنك تكثرين من تناول الخمر، ألست حزينة لرؤية سيريل هناك؟ على كل، يبدو أن الملل ينتابه.

وقلت لها بمرح:

– إنه عشيقي.

– إنك ثملة حقًا، لحسن الحظ أن ساعة العودة قد حانت.

غادرنا ويب وزوجته وقادي أبي السيارة بينما مال رأسي على كتف آن، وأخذت أفكر باني أفضلها على عائلة ويب وجميع الأشخاص الذين اعتدنا معاشرتهم.

وسأل أبي:

– أهي نائمة؟.

وأجابته آن:

– كالطفلة، لقد كان تصرفها لائقًا ما عدا إشارتها الفاضحة للقوادين...

وأخذ أبي يضحك، وساد الصمت فترة، ثم عاد أبي يقول:

– إنني أحبك يا آن ولا أحب غيرك، أتصدقين هذا؟

– لا تكثر من تكرار هذا، فإنك تخيفني.

– اعطيني يدك.

وكدت أنتصب وأحتج:

"ليس وأنت تقود على الشاطئ".

ولكنني كنت ثملة، وكان عطر آن وهواء البحر الذي يداعب شعري، والجرح الصغير الذي خلفه سيريل في كتفي في خلوتنا الغرامية، أسبابًا كافية لأن أشعر بالسعادة وأسكت مستسلمة للنعاس.

النعاس! من المؤكد أن السيدة ويب لا تجده في هذه اللحظة، ولا شك بأني سأستأجر، أنا الأخرى في سنها، شبانًا ليحبوني مهما بلغ الثمن، ولكني لن ادع الغيرة تمتلكني كما كانت تغار من إلسا وآن.

وأخذت أضحك بصمت، وتحركت كتف آن ثم سمعت صوتها يقول لي بلهجة آمرة:

– نامي!

فنمت...

الفصل الثامن

في الصباح التالي استيقظت، وأنا أكاد لا أشعر بأي تعب، وكانت الشمس تحط على سريري، مثل كل صباح، فتمددت على صدري معرضة ظهري العاري لأشعتها الدافئة، ولاحظت، على أرض الغرفة، ذبابة تتحرك بتردد، وتذكرت سهرة الليلة الماضية وكيف صارحت آن فيها بأن سيريل عشيقي، وأضحكني هذا، عندما يكون المرء ثملاً يقول الحقيقة ولكنه لا يجد من يصدقه.

وقرع الباب، فارتديت بسرعة سترة "البيجاما" وصحت:

– ادخل!.

ودخلت آن وهي تحمل فنجاناً. وقالت:

– لقد قدرت أن تكوني بحاجة لبعض القهوة، ألا تشعرين بانزعاج؟.

– قليلاً، لقد أسرفت في تناول الخمر أمس.

– كما تفعلين كلما اصطحبك أحد للسهرة، ولكن يجب أن أقر بأنك كنت مصدر تسلية لي إذ أن السهرة كانت طويلة.

وصمتت آن لحظة ثم قالت:

– سيسيل، هل تحبين صحبة هذا النوع من الناس؟ عائلة ويب أو دوبوي مثلاً؟.

– إن تصرفاتهم مزعجة جدًا، ولكنهم مضحكون.

وأخذت تنظر هي الأخرى إلى حركات الذبابة على الأرض، وخطر لي أن هذه مشلولة ولا شك.

ثم قالت:

– إنك لا تدركين مدى تفاهة أحاديثهم. ألا تمليّن قصص العقود والفتيات والسهرات؟.

وأجبت:

– لقد قضيت عشر سنين في دير، ولما كان هؤلاء الناس بدون أخلاق فإنهم ما زالوا يجذبونني.

ولم أجرؤ على القول أنهم يعجبونني.

ثم قلت فجأة:

– آن، هل تعتقدين بأني ذكية؟.

وأدهشها سؤالي المفاجئ فقالت وهي تضحك:

– طبعًا! لماذا تسألينني؟.

– لو كنت غبية لما تغيّر جوابك، إنك تجعلينني أشعر بأنك تتفوّقين عليّ.

– إنها قضية سن، لو لم أكن أكثر منك اتزانًا لأثرت بمجرى حياتي.

وعادت إلى الضحك، فشعرت بالامتعاض وقلت:

– لن يكون هذا سيئًا.

– بل سيكون كارثة.

وبغتة غيّرت لهجتها وحدقت بي ثم قالت:

– أتدرين كيف ينتهي الناس الذين يشبهون ويب عادة؟.

وأكملت بيني وبين نفسي:

– والذين يشبهون أبي.

بينما أضافت:

– سيصلون إلى سن لا يعود لديهم فيها أي جاذب، ويصيبهم العجز فلا يستطيعون تناول الخمر ولكنهم يتابعون اشتهاء النساء، وعند ذاك يجدون أنفسهم مجبرين على دفع الأموال لهن والقبول بتسويات عديدة ليتجنبوا وحدتهم. وسيشعرون بالتعاسة، ولا يختارون إلا هذا الوقت ليصبحوا عاطفيين وكثيري المطالب، لقد رأيت كثيرين يتحولون إلى هذا النوع من الحطام.

قلت:

– مسكين ويب!.

هذه هي النهاية التي تهدد أبي، أو، بالأقل، التي كانت تهدده لولا أن آن تكفلت به.

واستأنفت آن حديثها:

– إنك لم تفكري بهذا، إنك تفكرين قليلاً بالمستقبل أليس كذلك؟ هذه مزية الشباب.

– أرجوك لا تذكريني بشبابي، إنني لا أتمتع به إلا قليلاً ولا أعتقد بأنه يعطيني الحق بجميع المزايا، أو الأعذار، إنني لا أهتم به.

– بماذا تهتمين؟ بطمأنينتك؟ باستقلالك؟.

كنت أخشى هذا النوع من الأحاديث، خاصة مع آن.

وقلت:

– إنني لا أهتم بشيء، ثم إنك تعرفين أني لا أفكر أبدًا.

– إنكما تثيرانني أنت وأبوك: "إنكما لا تفكران بشيء أبدًا... إنكما لا تُصلحان لشيء... إنكما لا تعرفان... !" هل أنتما معجبان بحالتكما هذه؟.

– لست معجبة بحالتي، إنني لا أحب نفسي ولا أحاول أن أحبها، وتمر بي لحظات تدفعينني فيها إلى إرباك حياتي فأكاد أحنق عليك.

وصمتت لحظة وقد بدا عليها التفكير، ثم قالت:

– ابقي في سريرك واستريحي، سأتابع، في مكان آخر، تحقيقي عن الناحية العقلية في العائلة.

طبعًا، فالأمر سهل بما يتعلق بأبي، وتراءى لي وهو يجيبها:

"إنني لا أكفر بشيء، لأنني أحبك يا آن".

ومهما كانت ذكية فإن هذه الجعة ستقنعها.

تمطيت طويلاً ثم استرخيت على وسادتي، وفكرت كثيرًا، رغم ما قلته لآن، لا شك بأنها تبالغ، بعد خمس وشرين سنة يبلغ أبي الستين ويبيض شعره ويصبح متعلقًا بالوسكي وبذكرياته الملوّنة، وسنخرج معًا، فأحدثه بمغامراتي ويسدي إليّ النصح، وانتبهت إلى أني لم أحسب حساب آن في هذا المستقبل ولم أستطع إشراكها فيه، واستحال عليّ أن أتصور منزلنا الذي تسوده الفوضى والضجة، وقد أحلّت آن فيه النظام والسكون والانسجام.

الفصل التاسع

إنني أتحدث كثيرًا عني وعن آن وقليلاً عن أبي، ولا يعني هذا أن دوره لم يكن أكثر الأدوار أهمية أو أني لا أهتم به، فلم أحب يومًا أحدًا كما أحببته، وفي خضم العواطف التي أثارتني في ذلك العهد، كانت العاطفة التي أكنها له أكثرها استقرارًا وعمقًا والتصاقًا بي، ومع ذلك عليّ أن أتحدث عنه أكثر من غيره حتى أجعل سلوكه مقبولاً، إنه لم يكن مغرورًا أو أنانيًا، ولكن خفته بلغت حدًا لم يعد ينفع فيه دواء، ورغم هذا لم يكن يقدّم ملذاته عليّ، وكثيرًا ما تخلّى عن "فرص بديعة" كما يسميها ويب، لكي يرافقني بعد السهرة إلى المنزل.

كان اشتهاؤه إلسا يضايقه ولكن ليس كما قد يظن البعض، لم يكن يقول لنفسه:

"سوف أخون آن، وهذا يدل على أنني أحبها أقلّ مما كنت أعتقد."

بل كان يقول:

"إن اشتهائي إلسا مزعج، ويجب أن أنتهي منه بسرعة وإلا حدثت لي متاعب مع آن".

ثم أنه يحب آن ويعجب بها، فهي تذيقه لونًا من النساء يختلف عن المستهترات الحمقاوات اللواتي اعتاد عشرتهن في السنين الأخيرة.

لم أفكر به عندما رسمت خطة إخراج آن من حياتنا، فقد كنت أعرف

أنه سيسلوها كما يسلو كل شيء، إلا أنه كان في ذلك الحين يتألم أو يشعر بالحنق، فقد أصبحت إلسا بالنسبة إليه، رمز حياته الماضية وشبابه، وأدركت أنه يشعر برغبة ملحة في أن يقول لآن:

"يا حبيبتي، اسمحي لي بنهار واحد، يجب أن أذهب للتأكد قرب هذه الفتاة، من أني لست عاجزًا، يجب أن أطمئن."

ولكنه لم يكن يستطيع أن يطلب منها هذا، ليس لأنها غيورة أو متمسكة بالفضيلة، بل لأنها قبلت، ولا شك، العيش معه على الأسس التالية؛ إن عهد التهتك قد انتهى وأنه لم يعد تلميذًا بل رجلاً تعهد إليه بحياتها ولهذا عليه أن يحسن التصرف ولا يستسلم لنزواته.

ولا يستطيع أحد أن يلوم آن على موقفها ولكن هذا لم يكن يمنع أبي من اشتهاء إلسا، من اشتهائها شيئًا فشيئًا، أكثر من أي شيء، وبتلك الشهوة التي تثيرها الثمرة المحرمة.

ولا شك بأني كنت أستطيع حينذاك تدبير كل شيء، كان يكفي أن أوصي إلسا بالاستسلام إليه بينما أختلق سببًا لاصطحاب آن إلى نيس أو غيرها لقضاء بعد الظهر، وعند عودتنا نجد والدي هادئ الأعصاب ومتعلقًا كل التعلق بالحب الشرعي، أو الذي سيصبح شرعيًا عند عودتنا إلى باريس.

ولكني لم أوص إلسا بالاستسلام إليه ولا طلبت من آن مرافقتي إلى نيس، كنت أريد أن تتأصل هذه الرغبة في نفس أبي وتدفعه لارتكاب خطأ، فما كان باستطاعتي تحمل ازدراء آن لحياتنا الماضية التي كانت رمز السعادة بالنسبة لي ولأبي، لم أغرب في إذلالها بل في جعلها تقبل نظرتنا للحياة، يجب

أن تعرف أن أبي خانها وأن تعتبر خيانته أمرًا عابرًا لا إساءة لكرامتها.

وأخذت أتظاهر بتجاهل حالة أبي، حتى لا يسر إليّ بها ويجعلني شريكته ويدفعني للتحدث إلى إلسا وإبعاد آن.

ومرت الأيام سعيدة، وأخذت أضاعف الرص لإثارة رغبة أبي بإلسا، ولم يعد وجه آن يوحي إليّ بالندم.

إنني أمر مرورًا سريعًا بهذه المرحلة لأني أخشى، إذا أمعنت في البحث، أن أثير ذكريات تثقل عليّ، ومع ذلك، يكفي الآن أن أفكر بضحكة آن السعيدة ولطفها حيالي حتى أشعر بشيء يضغط على قلبي ويثيرني على نفسي، وأجد نفسي قريبة جدًا مما يسمى بالضمير المتعب فألجأ إلى إشعال لفافة وأدير أسطوانة وأتصل هاتفيًا بصديق.

الفصل العاشر

قد يختار القدر وجوهًا غير جديرة لتنفيذ أحكامه، وهذا الصيف اختار وجه إلسا، وهو وجه جميل وجذاب، وكانت لدى إلسا، ضحكة غريبة مثيرة لا يملكها إلا الأغبياء، وقد أدركت تأثير هذه الرحلة بأبي فجعلتها تستغلها إلى أقصى حد عندما كنا "نفاجئها" مع سيريل، وكنت أقول لها:

– عندما تشعرين بوصولي مع أبي، لا تقولي شيئًا فقط اضحكي.

وفعلاً كان الغضب يظهر بوضوح على أبي عندما يسمع هذه الضحكة، ولم انج من نتائج عملي فقد كنت أتألم كل الألم وأنا أرى سيريل يميل على إلسا.

وفي صباح أحد الأيام جاءتني الخادمة برسالة من إلسا هذا نصها: "تم تدبير كل شيء، احضري!."

وشعرت بالانقباض فقد كنت أكره النهايات، ذهبت إلى الشاطئ فإذا بي أجد إلسا تكاد تقفز سرورًا لانتصارها، وهتفت حالما رأتني:

– لقد قابلت أباك منذ ساعة!.

– ماذا قال لك؟.

– قال أنه يأسف كل الأسف لما حدث وأنه تصرف بنذالة، وهذا صحيح، أليس كذلك؟ز

ورأيت من واجبي أن أوافق فأحنيت رأسي، بينما أضافت:

- ثم أخذ يمتدحني بطريقته البارعة.

- وبعد ذلك؟.

- بعد ذلك دعاني لتناول الشاي معه في القرية لكي أثبت له أني لست حقودة وأني واسعة التفكير.

وأضحكتني تعابير أبي فسألتني إلسا:

- لماذا تضحكين؟ هل عليّ أن أقابله؟.

وكدت أجيبها أن هذا لا يعنيني، ثم أدركت أنها تعتبرني مسؤولة عن نجاح مناوراتها، وقد يكون هذا صحيحًا أو خاطئًا، ولكنه أثارني. وأجبتها:

- لا أعرف يا إلسا، فهذا متعلق بك. لا تسأليني دائمًا عما يجب عليك أن تفعلي كأنني أنا التي أدفعك إلى ...

- ولكن هذا صحيح، فبفضلك...

وأفزعتني نبرة الإعجاب في صوتها فقاطعتها:

- قابليه إذا شئت ولكن لا تحدثيني بهذا الأمر بعد الآن.

- ولكن... يجب أن ننقذه من هذه المرأة... سيسيل!.

ولم أنتظر لسماع باقي حديثها بل هربت، ليفعل أبي ما يشاء. ولتدبر آن آمرها!، وبعد فقد كان لدي موعد مع سيريل، وبدا لي أن الحب وحده يخلصني من هذا الخوف الذي اعتراني.

وضمني سيريل بين ذراعيه، ودون أن يفوه بكلمة، وقادني، إن كل شيء

يصبح، بجانبه، سهلاً وحافلاً بالعنف واللذة، وبعد قليل، قلت له، وأنا متمددة بإعياء على صدره، أني أكره نفسي، وظنني مازحة فأجاب:

– لا أهمية لذلك، إني أحبك كفاية لكي أجبرك على تبني رأيي، إنني أحبك، أحبك كثيرًا.

ولازمني إيقاع هذه الجملة طول الغداء، ولهذا لا أذكر تمامًا جميع تفاصيله، كانت آن ترتدي ثوبًا داكنًا بينما أخذ أبي يضحك بارتياح، وأعلن، ونحن نتناول الحلوى، أن لديه عملاً في القرية بعد الظهر، وابتسمت في داخلي، كنت تعيسة ولا أغرب سوى بشيء واحد؛ أن أستحم.

نزلت، في الساعة الرابعة، إلى الشاطئ، فوجدت أبي يستعد للذهاب إلى القرية، لم أقل له شيئًا وحتى لم أوصه بالحذر.

كان الماء منعشًا، ولم تأت آن، لا شك بأنها كانت مشغولة بالرسم في غرفتها، بينما يغازل أبي إلسا.

صعدت، بعد ساعتين، إلى السطح، وجلست على مقعد وأخذت جريدة.

وهنا بدت آن آتية من الغابة، كانت تركض بكل قوتها، وانتابني شعور مفاجئ مخجل بأن التي تركض عجوز توشك أن تقع، وجمدت مكاني مذهولة، بينما اختفت آن وراء المنزل في جهة المرآب، وعن ذاك فهمت، وأخذت أركض بدوري لألحق بها.

وعندما وصلت كانت قد صعدت إلى السيارة وأخذت تدير المحرك،

فألقيت بنفسي على باب السيارة وأنا أصيح:

- آن، آن، لا ترحلي، هناك خطأ، إن الذنب ذنبي، سأشرح لك..

لم تكن تصغي أو تنظر إليَّ، بل تحاول إرخاء الفرامل، وتابعت كلامي:

- آن، إننا بحاجة إليك!.

هنا رفعت رأسها: كانت تبكي، وأدركت بغتة أني حملت على مخلوق حيّ حساس وليس على وحدة كاملة، لا شك بأنها كانت فتاة صغيرة ثم شابة، وأخيرًا أصبحت امرأة كانت في الأربعين، وحيدة، وقد أحبت رجلاً وأملت بأن تسعد معه عشر سنين أو عشرين.

وأنا...

هذا الوجه، هذا الوجه، كان من صنعي، وانتابني الفزع وأخذت أرتجف بكاملي وأنا مستندة إلى الباب.

وهمست آن:

- لست بحاجة لأحد، أنت ولا هو.

ودار المحرك. وشعرت باليأس، لا، لا يمكنها أن تذهب هكذا، قلت:

- اغفري لي، أرجوك أن تغفري لي.

- اغفر لك ماذا؟.

كانت الدموع تسيل باستمرار على وجهها، ولم يبد عليها أنها تحس بها، وقالت:

– يا صغيرتي المسكينة!.

ووضعت يدها لحظة على خدي ثم... رحلت، ورأيت السيارة تختفي عند زاوية المنزل فشعرت بأني تائهة، لقد حدث كل شيء بسرعة!، وهذا الوجه، هذا الوجه..

وسمعت وقع خطى خلفي: إنه أبي، لقد تأخر لإزالة أحمر شفاه إلسا وأشواك الصنوبر، التفت وألقيت بنفسي عليه وأنا أصيح:

– سافل! سافل!.

وأخذت أنتحب بينما سألني بقلق:

– ولكن ماذا هناك؟ هل آن؟ .. سيسيل، أخبريني، سيسيل..

الفصل الحادي عشر

التقينا عند العشاء وقد أقلقتنا هذه العودة المفاجئة لانفرادنا، لم أشعر بالجوع ولا هو، كنا، كلانا، نعرف أن من الضروري أن تعود آن إلينا، فلم أكن، من جهتي، أستطيع تحمل ذكرى وجهها المكفهر، عند رحيلها، وحزنها وتبعاتي، لقد نسيت المناورات والخطط التي أعددتها بعناية، وشعرت بأني ضائعة، وكنت أرى ذات الإحساسات على وجه أبي.

وقال:

– أتعتقدين بأنها هجرتنا لمدة طويلة؟.

– لا شك أنها ذهبت إلى باريس.

وهمس أبي بصوت حالم:

– باريس...

– قد لا نراها بعد الآن...

ونظر إليّ بحزن وأمسك بيدي وقال:

– لا شك بأنك تكرهينني، لا أعرف ما الذي أصابني، فيما كنت عائدًا مع إلسا عبر الغابة، قبلتها. وقد وصلت آن في تلك اللحظة. و...

لم أعد أصغي إليه، كان الشيء الوحيد الذي يشغل فكري هو وجه آن المغدور والموسوم بالألم، وأخذت لفافة من علبة أبي وأشعلتها. وهذا أيضًا

أمر لا تسمح به آن؛ أن يدخن المرء في وسط الطعام.

ابتسمت لأبي وقلت:

– إنني أفهم جيدًا، ليس الذنب ذنبك، كانت لحظة جنونية كما يقولون، ولكن يجب أن تسامحنا آن، أقصد أن تسامحك.

– وماذا نفعل؟.

شعرت بالشفقة عليه وعلى نفسي، لماذا تهجرنا آن هكذا وتجعلنا نتألم لأجل عمل تافه؟، أليست عليها واجبات نحونا؟.

وقلت:

– سنكتب إليها ونطلب منها أن تسامحنا.

وهتف أبي:

– هذه فكرة بديعة.

أزحت الصحون والغطاء عن المائدة، دون أن نأكل، وأحضر أبي مصباحًا قويًا وقلمين وورق ورسائل وجلسنا متقابلين وشبه مبتسمين، إذ بدا لنا هذه الوسيلة ستعيد آن إلينا.

لا أستطيع أن أذكر، بدون شعور بالسخرية والقسوة، الرسالتين الحافلتين بالعواطف الرقيقة اللتين كتبناهما لآن ذلك المساء، كنا نشبه تلميذين يعملان في هذا الفرض المستحيل "استعادة آن"، وعندما أنهينا الرسالتين كنت شبه مقتنعة بأن آن لن تستطيع مقاومتهما وأن المصالحة قريبة، وتخيلت مشهد الغفران حافلاً بالمرح، سيجري هذا في منزلنا في باريس.

وستدخل آن و..

ورن جرس الهاتف، وكانت الساعة العاشرة، وتبادلنا نظرة أمل: إنها آن. إنها تتصل بنا لتبلغنا أنها تسامحنا وأنها عائدة، وقفز أبي إلى الجهاز وصاح بجذل:

- آلو..

ثم لم يقل سوى "نعم، نعم! أين؟ نعم"، وكان يتكلم بصوت ضعيف.

نهضت بدوري وقد ملأ الخوف نفسي، ونظرت إلى أبي وإلى يده التي أخذ يمر بها على وجهه بحركة آلية، وأخيرًا وضع السماعة مكانها والتفت إليَّ وقال:

- لقد وقع لها حادث على طريق "الاستيريل"، وقد أضاعوا وقتًا حتى وجدوا عنوانها فاتصلوا بباريس وهناك أعطوهم رقمنا هنا..

كان يتكلم بصوت أجوف ولم أجرؤ على مقاطعته:

- لقد وقع الحادث في أخطر مكان، ويبدو أن حوادث عديدة وقعت هناك وقد سقطت السيارة من ارتفاع خمسين مترًا ولو نجت لكان هذا معجزة..

إنني أذكر الجزء الباقي من تلك الليلة كما أذكر حلمًا مفزعًا، الطريق التي تقفز إلينا تحت أنوار السيارة ووجه أبي الجامد وباب العيادة، ولم يدعني أبي أراها، وقد أخبرتني إحدى الممرضات بان هذا هو الحادث السادس في ذات المكان منذ بداية الصيف.

وهنا فكرت بأن آن تسمو علينا حتى بموتها، ولو أقدمنا نحن على الانتحار، إذا افترضنا اننا نملك أنا وأبي الشجاعة الكافية لذلك، فإننا كنا سننتحر برصاصة في الرأس تاركين كلمة تهدف لإقلاق ضمير المسؤولين إلى الأبد، ولكن آن خلفت لنا هذه الهدية الضخمة وهي أنها تركت لنا فرصة لنعتقد بأن الحادث عفوي؛ مكان خطر واضطراب سيارتها.

وبعد، إذا كنت أتكلم اليوم عن انتحار فهذا إغراق مني في الخيال، إذ هل يعقل أن ينتحر أحد لأجل مخلوقين، مثلي ومثل أبي، ليسا بحاجة لأي شخص، حي أو ميت؟.

عدنا إلى المنزل، في الساعة الثالثة من بعد ظهر الغد فوجدنا إلسا وسيريل بانتظارنا وقد جلسا على درجات السلم، وانتصبا واقفين أمامنا كشخصين منسيين؛ لم يعرف أحد منهما آن أو يحبها، وتقدم سيريل مني ووضع يده على ذراعي، ونظرت إليه، إنني لم أحبه يومًا من الأيام، لقد وجدته طيبًا وجذابًا، وأحببت اللذة التي يمنحني إياها، ولكنني لم أكن بحاجة إليه، سوف أرحل وأغادر هذا المنزل وهذا الفتى وهذا الصيف، كان أبي بجانبي، فأمسك بذراعي ودخلنا المنزل.

وفي المنزل كانت سترة آن وزهورها وغرفتها وعطرها. وأغلق أبي النوافذ وأخرج زجاجة خمر من البراد وأحضر كأسين، كان هذا الدواء الوحيد الذي في متناولنا، ولمحت رسالتي الاعتذار على المائدة فدفعتهما بيدي وأوقعتهما على الأرض، وكان أبي يتقدم نحوي بالكأس فتردد ثم تجنب السير على أوراقهما، فأخذت الكأس وأفرغتها بحلقي دفعة واحدة.

الفصل الثاني عشر

تمت مراسم الدفن في باريس تحت سماء صافية وأما جمهور فضولي، ونظرت إليهن بفضول، لا شك بأنهن كنّ سيأتين لتناول الشاي في منزلنا مرة في السنة.

وكان الناس ينظرون إلى أبي بإشفاق، إذ أن ويب أذاع نبأ الزواج، ولمحت سيريل يبحث عني بين الجمهور فتجنبته، كان شعور الحقد الذي أضمره له ظالمًا ولكنني لم أستطع التخلص منه.

وفي أثناء العودة في السيارة، أمسك أبي بيدي وضغط عليها، وفكرت:

"لم يعد لديك أحد غيري، ولم يعد لدي أحد غيرك، إننا وحيدان وتعيسان".

وبكيت، وكانت هذه أول مرة أبكي فيها بعد الحادث، ومدّ أبي منديله إليّ دون أن يقول كلمة.

قضينا شهرًا كالأرمل واليتيمة نتناول الطعام معًا ولا نخرج أبدًا، وكنا نتكلم أحيانًا عن آن، ولكن بحذر، خوفًا من أن يؤلم أحدنا الآخر أو إذ نصل بالحديث إلى كلمات جارحة، وقد نال هذا الحذر مكافأته إذ استطعنا، بعد مدة، أن نتكلم عن آن بلهجة عادية كما يتحدث المرء عن شخص عزيز استدعاه الله إليه، إنني أكتب الله بدلاً من الصدفة، ولكننا لم نكن نؤمن بالله.

ثم قابلت، في أحد الأيام عند صديقة لي، أحد أبناء عمها فأعجبت به

وأعجب بي، وأكثرت من الخروج برفقته، ولما كان أبي لا يتحمل الوحدة، فقد أخذ يرافق امرأة شابة وطموحة.

وعادت حياتنا كالماضي، كما كان متوقعًا، وعندما نلتقي أنا وأبي نضحك سوية ونتحدث عن غزواتنا الغرامية، لا شك بأنه يشعر بأن علاقتي بفيليب ليست عذرية، كما أني أعرف أن عشيقته الجديدة تكلفه غاليًا، ولكننا سعيدان.

إن الشتاء يقترب من نهايته، ولن نستأجر ذات الدارة بل دارة أخرى قرب "جوان لي بان".

إلا أني، عندما أكون في سريري، عند الفجر، لا يؤنسني سوى هدير السيارات في باريس، أشعر بذاكرتي تخونني فيعود الصيف وجميع ذكرياته، آن، آن! وأردد هذا الاسم طويلاً بصوت خافت في الظلام، بينما يتصاعد في نفسي إحساس أستقبله باسمه، مغمضة العينين؛ مرحبًا أيها الحزن.

الفهرس